وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة عمار ثليجي بالأغواط

كلية العلوم الانسانية والاسلامية والحضارية

قسم التاريخ

العنوان:

الحملة الصليبية الثامنة على إفريقية

(668هـ/669هـ-1269م/1270م)

مذكرة نهاية الدراسة لنيل شهادة الماستر في التاريخ الوسيط

إعداد الطالبتين:

- قداري سمية
- دناقة أمينة

إشراف الأستاذ:

- كعبوش بومدين

السنة الجامعية : 2017/2016

كلمة شكر

نحمد الله عز وجل الذي وفقنا إلى إنجاز هذا البحث حمدا يليق بجلاله وعظمته ونسأله أن يتقبل منا هذا العمل خالصا لوجهه الكريم.

نتقدم بالشكر الجزيل إلى كل من ساعدنا في إتمام هذا العمل من قريب أو بعيد ونخص بالذكر الأستاذ المشرف كعبوش بومدين الذي قبل الإشراف على هذه الدراسة، فهو الذي كان وسيظل المثل الأعلى في الجد والاجتهاد، والإخلاص في العمل فقد كان نعم المرشد بنصائحه الثمينة وملاحظاته القيمة وتوجيهاته العلمية في معالجة الأخطاء

كما نشكر جميع أساتذة قسم التاريخ المحترمين شكرا جزيلا.

الإهداء

"إلي كل من يؤمن بالله ربا و بالإسلام دينا و بالجزائر وطنا"
بكل إخلاص امنح عصارة جهدي المتواضع إلي من كانا سببا في وجود العش الذي وفر لي كل الرعاية و الحنان
و علماني أن الأمل و الحلم يتحققان بالعمل و السهر
و علماني أن الألم و الأنين لا يداويهما إلا الصبر
و علماني أن جراح السنين لا تمتد مدى العمر
إلى الشمعة التي أحرقت نفسها عن طيب خاطر لتنير درب حياتي سندي الصامت ، رمز الحب و منبع الحنان امي الغالية.
إلى مصباح أفكاري الذي ذلل لي الصعاب و أراد لي العلم و النجاح ، رمز العطاء و منبع الصبر و الثقة أبي الغالي.
الى شقائق النعمان كواكب بيتنا : إسلام ،أسامة، خيرو ،هاجر أنس شيخ ،عائشة.
إليكم يا من حثني و شجعني على المثابرة في هذا الدرب وكانا لي عونا وسندا(زاهم وزوجها عباس)،(بختة وزوجها ناصر).

و للقلوب الواسعة اتساع البحر الذي يهبنا أصدافه إخوتي: الغالي طاهر، أحمد وزوجته (حليمة)، علال وزوجته (زهرة)، مشري وزوجته(نعيمة)
وإلى جدتي الغالية(بختة) وجدي رحمه الله(طاهر).
دون أن أنسى أساس العنقود الأسري عمتاي وخالاتي وأعمامي وأولادهم.
إلى كل نقطة حنان من بحر الحياة و الحب الذي الفته منذ الصغر (خديجة، وأميرة ولكتكوت صفوان)
إلى كل فرد من عائلة قداري، وقويدري .
إلى رمز الصداقة و الإخوة التي تقاسمت معها ثمرة هذا الجهد أمينة.
بكل شفافية اهدي الكلمات المرونقة إلى روحي و هوى ذاتي قمري الذهبي توائم روحي : أم الخير، فاطمة، سمية بن، سهام ،عائشة ،زهرة، هدى.
للذين كانوا مصباحا متوهجا في غرفتي و عونا في مسيرتي و أنسا في وحدتي :اساتذة إكرام زهيرة، فاطمة، كريمة، عوالي ،نور، سمية ، جميلة ،شهرة، هاجر ،سعاد، لندا ، أمينة .
و إلي من غمروني بصداقتهم و حنيتهم :مباركة، زينب.
إلى كل المعلمين و الأساتذة الذين كان لهم الفضل في تعليمي في كل مراحلي الدراسية .
إلى كل من أحبني يوما أحببته دوما
دون أن انسي من تربطني بهم صداقة بدفعة2017"تاريخ وسيط" في قسم العلوم الإنسانية والاجتماعية.

سمية

إهداء

أهدي ثمرة جهدي (عملي) المتواضع إلى:

روح أجدادي رحمهم الله.

أساس العنقود الأسري جدتي أطال الله في عمرها وأدامها تاجا فوق رؤوسنا.

إلى القلوب الواسعة اتساع البحر الذي يهبنا أصدافه بكل سخاء

الى منبع الرعاية والحنان، الصدر الحنون والقلب الدافئ التي لا يمكن

للكلمات أن توفي حقها حبيبتي وأمي فاطنة.

إلى من علمني كيف أقدس العلم وأضحي من أجله لطريق اليقين، وينبوع

المحبة والحلم الذي شربت منه ومثل الخلق الذي اهتديت به رمز القوة

والتضحية والدي العزيز أحمد أدامه الله زخرا لنا.

إلى كل نقطة حنان من بحر الحياة والحب الذي ألفته منذ الصغر شقائق روحي

إخوتي المختار سفيان سمية أم كلثوم وجميلة .

إلى الحب والصفاء أعمامي وأبنائهم وعماتي وأبنائهم.

إلى خلاتي وأخوالي وأولادهم .

إلى نعم العون والصداقة سناء أم لميس فاطمة سمية صوريه، مسعودة نور

وشهرة سهام .

إلى من معها الأماني تطيب ورفيقة دربي سميه-

إلى من جمعتني بهم مظلة الأخوة وتاج المحبة والإحترام والأيام الجامعية كل

واحدة باسمها سمية بن –مباركة – رقيه- زينب – إكرام -زهيرة –كريمه-فاطمة

حنان سارة فاطمة هدى بيري

إلى كل الأساتذة الذين كان لهم الفضل في تعليمي وإنارة دربي.

إلى كل زملائي في المؤسسة "بن نيش".

إلى كل خريجي قسم التاريخ جامعة عمار ثليجي بالأغواط.

دفعة 2017.

أمينـــة

قائمة المختصرات

باللغة العربية:

المختصرات	الأصل
ج	الجزء
د ط	بدون طبعة
ص	الصفحة
ط	الطبعة
ق	القرن

شهد العالم الإسلامي في أواخر القرن الحادي عشر الميلادي، حركة استعمارية من قبل الغرب لم يشهد لها مثيلاً في العصور الوسطى.

تتمثل هذه الحركة فيما هو معروف بالحملات الصليبية، التي تمثل الصراع بين الإسلام والمسيحية وكانت فكرتها في بادئ الأمر للبابا جرجوري الذي أراد إنشاء مملكة مسيحية واحدة لكن لم تسمح له الفرصة بسبب وفاته وقد خلفه في ذلك البابا أوربان الثاني والذي شجع وشحن همم المسيحين الأوروبيين وتجنيدهم في جيوش وتسيرهم نحو بلاد المسلمين لكن الجانب الديني كان مجرد ستار، أما الأسباب الحقيقية لهذه الحروب فتمثلت في زيادة سكان الغرب الأوروبي، احتياج الأوربيين إلي موارد اقتصادية والبحث عن أراضي جديدة وموارد أخرى، مطامع النبلاء والأمراء في إنشاء ممالك في بلاد المسلمين وتمكنهم من زيادة ثرواتهم الخاصة ونفوذهم، كل هذه الأسباب وغيرها حركت هذا الحقد الصليبي للزحف نحو أراضي المسلمين تحت اسم الحملات الصليبية والتي بدأت في الجهة الشرقية من العالم الإسلامي، وقد تعرضت لست حملات و كان وصولها في أول حملاتها إلى القسطنطينية مخترقة بذلك بلاد السلاجقة وأسسوا إمارات منها إمارة الرها، أنطاكية، بيت المقدس، طرابلس، وباقي الحملات كانت تهدف لاسترجاع بيت المقدس، فكانت تفشل في كل مرة في مسعاها وقد غيرت هذه الحملات مسارها من عكا إلى مصر وبتحديد إلي دمياط بعد فشلها على الاستلاء عليها توجهت غربا، فكانت إفريقية هي أولى مناطق بلاد المغرب التي تلقت الضربات الأولى للصليبين.

وقد بلغت هذه الحملات الصليبية على العالم الإسلامي ثماني حملات فوقع اختيارنا على الحملة الأخيرة والتي كانت وجهتها إلى إفريقية، وبناء على هذا نجد أنفسنا أمام الإشكال التالي: لماذا توجه الصليبين إلى إفريقية في حملتهم الأخيرة؟

ضمن هذه الإشكالية تندرج لدينا مجموعة من التساؤلات التالية:

- كيف كانت أوضاع إفريقية والفرنجة قبل الحملة؟ وفيما تمثل الهجوم الصليبي على إفريقية؟ وماهي أسباب ونتائج هذه الحملة؟.

للإجابة على هذه الأسئلة المطروحة ارتأينا استعمال المنهجين التاريخي و الوصفي التحليلي اللذان يرصدان وينقلان ما مضى من وقائع وأحداث، فيصفانها ويفسرانها على أسس علمية صارمة بقصد الوصول إلى تعميمات تساعد على فهم نتائج تاريخ هذه الحملة.

لقد دفعتنا عدة أسباب لاختيار هذا الموضوع يمكن تلخيصها فيما يلي:

- الميل إلي دراسة تاريخ الحروب الصليبية وخاصة الحملة الأخيرة والتي كانت وجهتها تونس.
- نقص وافتقار المكتبة لهذا النوع من الدراسات، لذا ارتأينا أنه من واجبنا المساهمة ولو بعمل بسيط في إثراء المكتبة.

في حين هدفنا من دراسة الموضوع هو الإلمام بجوانب هذه الحملة وذلك بتسليط الضوء على ما جاء فيها من احداث على إفريقية ومعرفة ما مدى تأثيرها على هذه الدولة.

أما عن أهمية هذا الموضوع فتكمن في كونه يدرس جانب من جوانب تونس والمتمثل في معرفة الدولة الحفصية، إضافة إلي التعرف عن أوضاعها قبل الحملة الصليبية.

حيث تم تقسيم هذا الموضوع إلى ثلاث فصول:

الفصل الأول والمدرج تحت عنوان أوضاع تونس والفرنجة قبل الحملة فاقتصرنا فيه على معرفة اوضاع الدولة الحفصية قبل الهجوم الصليبي وكما تضمن اوضاع الفرنجة قبل الحملة.

أما الفصل الثاني فخصصناه للتحدث عن الهجوم الصليبي على تونس، وذلك بذكر دعوة لويس التاسع للحملة على تونس، وكيف كانت مواجهة المستنصر الحفصي لهذا الهجوم؟

في حين خصصنا الفصل الثالث والأخير بالتطرق إلى فشل الحملة ونتائجها وذلك بذكر اسباب فشلها وفيما تمثلت مفوضات الصلح بين الصليبين والحفصين؟

وقد اعتمدنا في موضوعنا هذا على جملة من المصادر المهمة التي تخدمه اهمها:

ابن القنفذ في كتابه الفارسية بوصفه لأبو زكريا مؤسس الدولة الحفصية ونزول الصليبين إلى قرطاجة، والذي اختلف فيه مع ابو زرع في تاريخ نزولهم، اما محي الدين بن عبد الظاهر في كتابه الروض الزاهر فيختلف عنهم في هذا الموضوع، وابن خلدون فيذكر في كتابه العبر خبر الملوك الذين اتحدوا مع لويس في غزو تونس، واعتمدنا ايضا على المؤرخ المجهول المراكشي في كتابه الاستبصار بوصفه لقرطاجة قصرها واسوارها واحتلالها من طرف الصليبين ،اما الباجي المسعودي فوصفها بعدما دخلها الصليبين وتم تخريبها من طرفهم في كتابها الخلاصة النقية، اما عن اهم المراجع التي اعتمدناها نذكر:

محمد العروسي في كتابه الحروب الصليبية في المشرق والمغرب تكلم عن الحفصين وعلاقاتهم بالجمهوريات الإيطالية قبل الحملة، اما معالم تاريخ اوربا في العصور الوسطى لمحمود سعيد عمران اخذنا منه اصل الفرنجة واوضاعهم قبل هجومهم على إفريقيا والتعريف بالملك لويس التاسع وكتاب حسين ممدوح الحروب الصليبية في شمال إفريقيا وأثرها الحضاري حيث تكلم عن الهجوم الذي شنه الصليبين على تونس وتحضير لويس التاسع لهذه الحملة كما اعتمدنا على الاطالس منها أطلس تاريخ الإسلام حسين مؤنس، أطلس الحروب الصليبية سامي بن عبد الله المغلوث في البحث عن اسباب فشل الحملة الصليبية على مصر.

وكأي عمل يهدف للوصول إلى الحقيقة العلمية فقد واجهتنا بعض الصعوبات وكانت أهمها ضيق الوقت الذي لم يساعدنا، نقص في المادة العلمية التي اختصت في موضوعنا، صعوبة التعامل مع المصادر التي تتناول هذا الموضوع مما ادى إلى صعوبة دراسة بعض نواحي الموضوع وحتى المراجع التي تطرقت للحملة الصليبية على تونس، حيث كانت أغلبها تبرز نقص المعلومات حول هذه الحملة التي لم تأخذ نصيبها وحقها من الكتابات والتي نعتقد بأن سبب ذلك هو أن الحملة لم تدم طويلاً.

المبحث الأول: اوضاع تونس قبل الهجوم الصليبي

الدولة الحفصية في تونس

ينتمي الحفصيون إلى قبيلة بربرية ومساكنها في جبال الاطلس استمدت التسمية من أبي حفص عمر أحد أجداد الأسرة ومن رجالات ابن تومرت الاوفياء ثم تولى ابنه ابو زكريا يحي وقام بالاستلاء علي السلطة وأعلن استقلاله واستطاع أن يؤسس دولة استخلفت الدولة الموحدية في المنطقة وأصبح أبو زكريا الحفصي من اشهر ملوك المغرب الإسلامي[1]، ويقول ابن القنفد في كتابه "الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية" في وصفه ابو زكريا بانه كان "...ملكا جزلا، سعيدا حليما، فاضلا مدركا، عالما مجيدا شاعرا محسنا، فصيحا كاتبا ، صليب الرأي، وله اقوال جميلة لم تكن في غيره من الملوك"[2].

ونظم ابو زكريا الاول علاقات تجارية مع الجمهوريات الايطالية: البندقية وبيزة وكانت له علاقة مع الامبراطور فريدريك الثاني[3] ملك صقلية، الذي عين له سفيرا بتونس ،كما عقدت معاهدة بين الطرفين التزم فيها ابو زكريا بدفع أداء سنوي مقابل حرية سفنه التجارية والإتجار في مناطق سيادة الامبراطور الالماني، وفي سنه 647هـ 1249م توفي ابو زكريا الاول وتولى بعده ابنه ابو عبد الله محمد المستنصر بالله، وازداد مقام الحفصيين في عهده اعتبارا وازدهارا.

وكما يقول ابن ابي دينار" هو ابن المولى ابو زكريا بن المولى ابي محمد عبد الواحد ابن ابي بكر ابن المولى ابي حفص عمر بويع صبيحة الليلة التي توفي فيها والده يوم الجمعة التاسع والعشرين من جمادى الاخير سنة سبع وأربعين و ستمائة عمره اثنتان وعشرين سنة، وفي سنة ثنتين وخمسين وصلت بيعة بني مرين من مدينة فاس ودعي له على منابرها، وفي سنة سبع وخمسين ووصلت بيعة مكة ولقب بالمستنصر بالله وكان قبل ذلك يدعى بالأمير فقط ونصب للقضاء في الاحكام الشرعية ابو عبد الله محمد ابن ابراهيم المهدوي المعروف بابن الخباز من اهل العلم والورع وكان المستنصر يقول ما يسألني الله

1- محمد العروسي المطوي: **الحروب الصليبية في المشرق و المغرب**، ب ط، دار الغرب الإسلامي،1982 ص 134.

2- أبوالعباس أحمد بن حسين بن علي بن الخطيب بن القنفد القسنطيني: **الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية** ، الدار التونسية للنشر ،تونس،1968،ص105

3- **فريدريك الثاني** 1194-1250 ملك الصقيليتين ينتمي للعائلة الملكية هوهينستوفن، نعيم فرح، **تاريخ أوربا في العصور الوسطى**،ص503.

عن امور الامة بعد ان قدمت عليهم ابن الخباز، وفي عام ستة وستين تحرك الى بني رياح ومسك جماعة من رؤوسهم وضربت أعناقهم وبعث الى تونس برؤوسهم على الرماح"[1].

ويقول الباجي المسعودي" حيث كان يوما مشهودا ودعي السلطان أمير المؤمنين من يومئذ ثم وافته بيعة أهل فاس وسلطانها المريني وهاداه صاحب برنو من ملوك السودان بهدية لطيفة واتسع ملكه وقوي سلطانه وأباد مخالفيه"[2].

فتلقب المستنصر رسميا بلقب الخليفة وأمير المؤمنين في خضم المصائب العديدة التي حلت بالعالم الإسلامي حوالي سنة 1260م واعترفت له دول عديدة في المشرق والمغرب.

ولما سقطت بغداد في يد التتر 656هـ -1258م جاءته البيعة من شريف مكة فسمى بأمير المؤمنين وتلقب بلقب المستنصر بالله، واعتبر خليفة للمسلمين وأعظم ملوك العالم الإسلام وفي عهده ساءت العلاقات بين مملكة صقلية والبلاط الحفصي.

فقد مات الإمبراطور فريدريك الثاني الذي عرفت علاقته الحسنة مع المسلمين وبعد موت هذا الإمبراطور لحقت مسلمي صقلية وجنوب ايطاليا اضطهادات كثيرة ومعاملات سيئة، وتولى امر صقلية بعد فريدريك الثاني "شارل دانجو" اخو لويس التاسع وكان قد سار صحبة اخيه الملك لويس عندما قام بحملة صليبية على مصر، كان تولي شارل دانجو مملكة صقلية نتيجة لرغبة البابا الذي كان يكره فريدريك الثاني، فعمل على اقصاء جنسه واهله عن حكم مملكة صقلية، ولم يستتب الامر لشارل دانجو، فقد ثار عليه الكثير من الصقليين وقدم منهم جماعة إلى تونس واستنجدوا بالمستنصر بالله الحفصي فاستقبلهم بحفاوة واعطاهم قوة عسكرية، فاستحكم العداء بين شارل دانجو وبين المستنصر الحفصي، وطالب بالأتاوى التي كان يدفعها الحفصيون لملك صقلية مقابل الاتجار في مناطق سيادته فامتنع المستنصر ولم يعترف بما طلبه منه.[3]

1- ابن أبي دينار أبو عبد الله محمد بن أبي القاسم الرعيني القيرواني: المؤنس **في أخبار افريقية وتونس**، ط1، الدولة التونسية ،1286، ص 127-128.

2- أبي عبد الله الباجي المسعودي: **الخلاصة النقية في امراء افريقية**، ط2، تونس، 1323، ص 62.

3- محمد العروسي المطوي: **الحروب الصليبية في المشرق الإسلامي**، المرجع السابق ،ص 135-136.

المبحث الثاني: اوضاع الفرنجة قبل الحملة على تونس

يمثل الفرنجة[1]، حلقة هامة في تاريخ الغزوات الجرمانية للغرب الأوروبي فإن دولتهم حققت بقاء طويلا، كما أنهم نجحوا في مزج مقومات الحضارة الرومانية مع خصائص وتقاليد الفرنجة الأصلية على نطاق واسع ويمكن تحديد تاريخ دولة الفرنجة سنة 431م كبداية لها وهي السنة التي هاجم فيها ملكهم كلوديو مدينة كلوني، وإن كان البعض يحددها بعام 482م وهي السنة التي توقف فيها استخدام لقب إمبراطور بين حكام الفرنجة ويمكننا ان نقسم تاريخ الفرنجة إلى قسمين:

1-الدولة الميرو فنجية نسبة إلى مروفك الجد الأكبر للفرنجة وتمتد من عام 482الى عام 751م.

2- الدولة الكارولنجية، ويلمع من بين حكامها الإمبراطور شر لمان ويمتد عصرها من سنة 751م حتى سنة987م.[2]

وفي سنة981 سيطرا آل كابية على فرنسا بعد سقوط البيت الكرولنجي، ولقب كابية يعود للأسرة التي انتمى إليها الكثير من الملوك وحكام فرنسا واول ملك لقب بذلك هوف كابية وقد نشأة هذه الأسرة من أسرة إقطاعية شغلت مناصب هامه في الدولة تمتعت بحصانة قوية استمدتها من ملوك الدولة الكرولنجية وقد مدت العرش الفرنسي بملوك شرعيين واشتهرت بسبب مقاومتها لنورمان (الشماليين)، ويعتبر روبرت التقي المؤسس الأصلي لهذه الأسرة، توفي هذا الأخير سنة 1031 وخلفه ابنه هنري ثم خلفه فليب الأول، وظل مبدأ الوراثة في هذه الأسرة سائرا.

1- **الفرنجة:** هم قوم من الاقوام الجرمانيين ويبدو ان دورهم لم يظهر على مسرح التاريخ قبل القرن الثالث وكلمة فرنجي تعني الحر وهذا الوصف يطلق على الاقوام التي كانت تنزع الى الاستقلال عن روما والخروج عن طاعتها ان الفرنجة 3 قبائل : الساليون (البحريون) الذين ينزلون قرب البحر، الريواريون (البريون) الذين يقيمون على ضفاف النهر والشلماف. وفي سنة 240هـ هزم الفرنجة امام الامبراطور اورليان، بالقرب من ميتز وقد استقر الفرنجة الريواريون في ق،5م من منحدرات الرين الغربية واستولوا على كولوني (463م) واتخذوها عاصمة لهم، الفرنجة الفرنكونيا بقوا على ضفاف النهر الشرقية والفرنجة الساليون الذين اشتقوا اسمهم من نهر سالا وتحركوا من هذا الاقليم واحتلوا الجزء الشمالي والغربي من غالة فأصبحت بذلك فرنجية بالكامل .كانت لغة الفرنجة المانية ومعتقداتهم وثنية، وقد وصف الساليون في مقدمة القانون السالي بانهم شعب مجيد حكيم في مجالسه نبيل في جسمه التي تشع منه الصحة والعافية ولم يعدو نفسهم برابرة وكانوا طوال القامة، شقر الوجوه يجمعون شعرهم الطول ويعقدونه فوق رؤوسهم ثم يتركونه يسقط اشبه بذيل الحصان، يطيلون شواربهم ويحلقون لحاهم وكانت الشجاعة عندهم اسمى الفضائل كلها، **نعيم فرح**، المرجع السابق، ص415.

2- محمود سعيد عمران: **معالم تاريخ أوروبا في العصور الوسطى**، ب ط، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ص 89.

حيث تلاه لويس السادس الذي كون جيشا قويا وعمل على رخاء دولته بحماية الفلاحين والصناع، وبعدها خلفه لوس السابع ومن أهم أعماله خروجه مع كونراد الثالث(ملك ألمانيا)على رأس الحملة الصليبية الثانية ولقد سلم لويس ابنه فليب الثاني أغسطس 1180-1223الحكم وبعد وفاة هذا الأخير خلفه ابنه لويس الثامن 1223-1226 ومن أعماله قيادة حملة ضد الهراطقة في جنوب فرنسا وقد عمل على تقوية السلطة المركزية الذي تزوج من بلانش القشتالية وأنجب منها لويس التاسع المعروف باسم القديس.[1]

2- لويس التاسع: 1226م-1270م

حكم لويس فترة طويلة ويرجع ذلك إلى توليه الحكم قاصرا في الثانية عشر من عمره فتولت أمه الأرملة الشابة بلانش الوصاية على ابنها، ورغم جمالها وفتنتها صانت ما يجري في عروقها من دم ملكي فهي ابنت الملك الفونسو التاسع ملك قشتالة وزوجة ملك لويس الثامن وام ملك لويس التاسع ،وحفيدة هنري الثاني ملك انجلترا، ويبدو ان هذا الرصيد الهائل من الملك دفعها الى سلوك طيب حيال فرنسا.

وعلى أي حال فقد تفرغت بلانش لتربية ابنها لويس حتى حكم لويس بنفسه عام 1235م.

عندما تسلم لويس مقاليد الحكم لم يبتعد عن السياسة التي رسمتها والدته، ففي مجال السياسة الداخلية عامل النبلاء معاملة طيبة مقابل الوفاء بما عليهم من التزامات للدولة وشدد العقاب على المخالفين، وأدخل العديد من القوانين التي تحرم الثأر وقتل العبيد والأتباع دون محاكمة، وأوجب المحاكمة بأدلة والشهود محل المبارزة، وزاد من عدد المحاكم الملكية وتقلصت محاكم البارونات، فلقد عامل لويس التاسع رجال الدين على انهم بشر وعيوب البشر كثيرة ولم يجد لويس التاسع من علاج سوى القدوة الحسنة، فكان لهم مثالا ولم يتورع عن معاقبة المخالفين[2].

1- نيفين ظافر حسيب الكوردي: **الأوضاع الدينية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية في الغرب الأوروبي من ق9حتى ق11**، رسالة ماجيستر في التاريخ الإسلامي، قسم التاريخ والآثار بكلية الآداب في الجامعة الإسلامية بفلسطين، 2011، ص61.

2-نعيم فرح: المرجع السابق،96.

وحاكمهم أمام المحاكم الملكية بعد أن قيد سلطة المحاكم الكنيسية ورغم علاقة لويس التاسع الطيبة مع البابوية إلا أنه اصدر في عام 1268م قانونا قيد به حق البابا في تعين رجال الدين في فرنسا، وإذا كان لويس قد نجح داخل فرنسا في الساحة الأوروبية التي عرف فيها باسم القديس لويس.

وفيما يتعلق بالسياسة الخارجية فقد سار لويس على المفهوم نفسه الذي سار عليه في علاقته ببارونات ورعيته ،فقد كان يرى أنه بوسع الحكومة أن تسلك سلوكا طيبا مع جيرانها مع الحفاظ على كرامتها ،فعمل على تجنب الحرب بقدر الإمكان رغم مكان له من جيش منظم ومدرب، فردا لإنجلترا وإسبانيا أراضي استولى عليها أسلافه دون حق حتى أن لويس لم يدخل في حرب منذ عام 1243م حتى وفاته 1270م باستثناء الحروب الصليبية والتي كانت عمل مقدس من وجهة نظر الغرب الأوربي، فإنه قد فشل في حملاته الصليبية حملته الأولى والمعروفة بالسابعة عام 1248 واتجه الى مصر وفشل فيها، فعاد إلى بلاده مهزوما ذليلا وحاول أن يعوض فشله فاستعد بحملة أخرى كانت وجهتها تونس[1].

3- فشل الحملة الصليبية على مصر وتراجع الفرنج.

في سنة 1249م/647هـ تواترت الانباء عن قرب قدوم حملة بقيادة ملك فرنسا لويس التاسع وقد استعد لها الملك صالح الذي عاد من الشام الى مصر على وجه السرعة كي ينظم قواته لمواجهة الصلبيين بعدما اعلمه الإمبراطور فريدريك الثاني صديق الأيوبيين وفي خريف سنة 1248م /646هـ وصل الاسطول الصليبي من ميناء مرسيليا الفرنسي إلى قبرص حيث أمضى لويس التاسع فترة من الوقت في انتظار تكامل قواته وفي سنة 1249م/647هـ أقلعت السفن بتجاه الشواطئ المصرية.

وفي 20 من صفر من نفس السنة نزلت القوات الصلبية في دمياط **الملحق رقم 02 ص 61** وقد انسحب المدافعون عن المدينة بعدما ظنوا أن ملكهم الصالح قد مات وفي أعقاب الجنود فرا سكان هذه المدينة[2].

1- محمد فتحي الشاعر: **أوروبا في العصور الوسطي**، ب ط، مكتبة الأنجلو المصرية، ص220.

2- سامي بن عبدالله بن احمد المغلوث: **أطلس الحملات الصليبية على المشرق في العصور الوسطى**،ط1 الرياض، 2009ص171.

وهكذا سقطت مدينة دمياط بسهولة، وفي خضم هذه الاحداث توفي الملك الصالح نجم الدين الذي خلفه ابنه توران شاه بعدما استدعته زوجة أبيه شجرة الدر.

اشتدت المقاومة الإسلامية ضد الصلبيين التي كانت تتقدم نحو مدينة المنصورة، لكن كان بانتظارهم الأمير بيبرس بند قداري أحد مماليك الملك الصالح الذي صار فيما بعد السلطان الظاهر بيبرس الذي نظم الدفاع عن مدينة المنصورة بشكل جيد وكانت نتيجة هذه المواجهة انهزام الصلبيين وهروب الفرسان على اقدامهم تجاه النيل ليلقوا حتفهم غرقا في مياهه .

أما الجيش الصليبي الرئيسي بقيادة الملك لويس التاسع، فكان لايزال في الطريق الى المنصورة ولا يعلم مصير الطليعة الصليبية التي أرسلها لاقتحام المدينة، وفي محرم 648هـ /1250م دارت معركة رهيبة كان نتيجتها القضاء التام على الجيش الصليبي، وأسر لويس التاسع الذي أفرج عليه فيما بعد بفدية قدرها 200 ألف دينار وبعد أن أقسم بأن لا يعاود الهجوم على مصر[1].

وكان من أسباب فشل هذه الحملة:

جهل الفرنج بجغرافية البلاد المصرية بعامة وبطبوغرافية الطريق الذي اتخذوه للتوجه صوب القاهرة بعد الاستلاء على دمياط، فقط كان يعترض الطريق افخاخ للإيقاع بالجيش كما كان خطأ قواد الحملة في تقدير العامل الزمني الذي له أكبر أثر في عوامل نجاح الحروب فالوقت الذي أضاعه الصليبيون في قبرص كان سببا في تسرب أنباء تحرك الحملة والوقت الذي اضاعوه في دمياط كان سببا في إعطاء الفرصة للقوات الإسلامية في التقاط أنفاسهم وإعادة تنظيم قواتها[2].

1- سامي بن عبد الله بن احمد المغلوث: المرجع السابق،ص172.

2- مصطفى وهبة: **موجز تاريخ الحروب الصليبية**، مكتبة الإيمان المصرية، ط1، أمام جامعة الأزهر، 1997، ص54.

أما السبب الذي أدى كذلك لفشل الحملة هو عصيان القوات الصليبية وعدم طاعتها لأوامر قائد الحملة وهو الملك لويس التاسع، فواقع الأمر أن الملك لم يكن صاحب الكلمة المطلقة على قواده.

والدليل هو أن لويس كان راغبا في التوجه الى مصر عقب وصوله الى قبرص ولكنه اضطر للبقاء في الجزيرة نزولا على رغبة قواد جيشه، وتكرر الحال في دمياط وفضل الصليبيون البقاء في دمياط لبعض الوقت ولكنهم لم يستغلوا هذا الوقت في الاعداد والتدريب بل قضوه في الملذات وعجز الملك عن كبح جماحهم، وغير ذلك من الأعمال المخلة.[1]

1-مصطفى وهبة: المرجع السابق، ص55.

المبحث الأول: دعوة لويس التاسع إلى حملة صليبية جديدة

لقد مر لويس التاسع بهزائم وخيبة أمل في محاولاته للتغلب على المسلمين لكنه كان يأمل ويحاول القيام بحرب صليبيه جديدة ضدهم، وفي هذه المرة شعر أنه لا يستطيع مواجهة المماليك فوجه حملته إلى تونس حيث أن لويس التاسع لم يكف عن التفكير في استئناف جهوده الصليبية ضد المسلمين وهو لم يرحل عن الشرق إلا لتنظيم حملة صليبية جديدة والعودة إليها من جديد، ولذلك كان ينظر إلى جهود الدعاة الذين انتشروا بين طبقات الشعب الفرنسي يدعون الناس لحمل الصليب بعين الرضى والأمل[1].

ففي سنة 658هـ / 1260 كان القديس سييج يدعو لحملة صليبية وفي أول مايو سنة 1261 / 659هـ وبعد استقبال لويس التاسع للسفارة التي أرسلها إليه التتار، انتهزا إحدى المناسبات الدينية ودعا إلى اجتماع عام حضره الأمراء والفرسان ورجال الدين واتخذ المجتمعون قرار بضرورة مراقبة إحياء شعائر الدين وإقامة الصلوات في جميع كنائس المملكة.

ومما شجع لويس التاسع على المضي قدما في مشروعه أن ظروف فرنسا كانت في ذلك الوقت أفضل بكثير مما كانت عليه اثناء وجوده في المشرق والتي كان لها أثر كبير في اتخاذ قراره بالعودة إلى بلاده، لقد كانت جهوده منذ عودته سواء في مجال سياسته الداخلية أو علاقاته الدولية ليس لها إلا هدفا كبيرا واحدا هو إعداد حملة صليبية جديدة تساهم فيها أوروبا موحدة يسودها السلام.

ومن هذا تمكن لويس من إنجاز عمل سياسي ضخم كفل لبلاده الاستقرار والأمن بعقده معاهدة ابفيل مع هنري الثالث ملك انجلترا في 28 ماي سنة 1258 حيث استتب السلام بين الدولتين وبذلك أمنت فرنسا من تهديد الخطر الخارجي[2].

1- حسين مؤنس: **أطلس تاريخ الإسلام**، ط1، القاهرة، 1987، ص 271.

2-. مصطفى وهبة: المرجع السابق،56.

وكذلك أخذ في نفس السنة يفاوض ملك أرغونا لحل الأمور التي كانت معلقة بينهما، كما رحب بعد ذلك بقليل مما عرضته عليه السفارة التي أرسلها إليه امبراطور القسطنطينية البيزنطي ميخائيل الثامن باليولوج[1] الذي كان قد أعاد تأسيس الإمبراطورية البيزنطية على أنقاض دولة اللاتين فيها من أن يبذل جهوده لدى البابوية للعمل على توحيد الكنيستين الشرقية والغربية كخطوة أولى في سبيل إعادة الوحدة المسيحية للصمود أمام التحديات التي كانت تواجهها وقد بذل لويس التاسع جهود كبيرة في هذا المجال ونظرا لسعة أفقه وترفعه على النزاعات الإقليمية، ورغبته في إشاعة السلام في أوروبا ولتوازنه بدأ للجميع مسالما ومحترما لحقوق الغير لم يلبث أن حظي باحترام بقية حكام أوروبا، كل هذه الاسباب وفرت الظروف الملائمة للملك الفرنسي للقيام بحملته الصليبية الجديدة[2].

وحانت الفرصة التي طالما انتظرها لويس التاسع، إذا حدث سنة 664هـ 1265 هـ أن قام الظاهر بيبرس بهجومه الشامل على الصليبين في المشرق وعندئذ دعت البابوية لحملة صليبية جديدة.

فكتب الملك الفرنسي إلى البابا كلمنت الرابع مبدي رغبته الشديدة في الاشتراك شخصيا في هذه الحملة متمنيا منه الموافقة على تحقيق هذه الرغبة التي تمتلكه والتي لم يشأ أن يصرحا بها قبل الوقوف على رأيه ولكن هذا البابا رفض ذلك في البداية وأرسل رسالة إلى لويس التاسع في أواخر سبتمبر سنة 1266م رسالة يصده فيها عن الاشتراك بنفسه في الحملة، ولكن الأخير أصر في رسالة جديدة بعث بها إليه في أكتوبر من ذلك العام على موقفه، فلم يسع البابا إلا الموافقة وأرسل إليه نائبا عنه هو الكردينال رودلف دي البانجو ليسلمه الصليب ثم لموافقته في الحملة كنائب بابوي بعد ذلك[3].

1-**مخائيل الثامن**،1223-1282،كان امبراطورا بيزنطنيا مؤسس سلال ال باليولوج ،السيد الباز العريني، **المغول**،ص281.

2- حسين مؤنس: المرجع السابق ،ص272.

3- مصطفى وهبة: المرجع السابق، ص57.

ومنذ حصوله على موافقة البابا نشط في العمل على تنفيذ مشروعه، فأرسل إلى كافة الامراء والفرسان وكبار رجال الدين وعليه القوم في مملكته وجيرانه من الملوك والأمراء يستدعيهم إلى اجتماع عام يعقد في باريس يوم 24 مارس سنة 1267/ 665 هـ وكان الجميع يدرك الهدف من هذه الدعوة ولذلك فإن جوا نفيل صديقه ومرافقه في حملته الأولى تملصا من رغبة الملك، واعتذر عن حضور ذلك الاجتماع متعللا بحمى دورية تنتابه.

ولكنه تحت إصرار الملك الذي أرسل اليه يرد اعتذاره ذلك بأن لديه أطباء مهرة يستعطون معالجته من تلك الحمى اضطر إلى القدوم إلى باريس،وفي صباح يوم 25 مارس سنة 1267م / 665 هـ وفي القاعة الكبرى باللوفر عقد ذلك الاجتماع بحضور نائب البابا حيث أخرجت الآثار المقدسة للحضور والتي كان ضمنها قطعة من خشب الصليب الأصلي، للتأثير عليهم[1].

وبالرغم من حالة الإعياء والمرض التي كان الملك عليها فإنه اعتلى المنصة وألقى خطبة أفصح فيها عن رغبته وحث الحضور على الاقتداء به والالتفاف من حوله لخدمة الصليب ثم تلاه نائب البابا حيث ألقى هو الاخر كلمة وعظ فيها الجميع وحثهم على متابعة الملك ثم سلم الصليب إلى الملك واقتدى أبناء الملك الثلاثة فيليب ولي العهد وحنا الحزين كونت "نافرس" وبطرس كونت" الو نغوي" بأبيهم في استلام الصليب من نائب البابا دلالة على رغبتهم في الاشتراك في الحملة، وسرعان ما تبعهم أخو الملك شارل دانجو وألفونس كونت بواتييه وابن أخيه روبرت كونت أرتو، وتتابع القوم بعد ذلك على استلام الصليب حيث اقتدى بالملك وأسرته كل من ملوك أرغونة وقشتالة والبرتغال وابني ملك انجلترا وتبلط (ثيبوت) ملك نفارة وصهر لويس التاسع، وكونت الفلاندرز[2] وكونت لوكسمبورغ[3].

1- حسين ممدوح: **الحروب الصليبية في شمال أفريقيا وأثرها الحضاري**، ط1، الأردن، 1998، ص، 282- 283.

2- **فرناندو كونت فلاندرز**،1188-1233 ابن الثاني لسانشو الأول ملك البرتغال، موريس بيشوب، **تاريخ أوربا في العصور الوسطى**،ص56.

3- أرنست باركر **:الحروب الصليبية**، ترجمة السيد الباز العريني،ط2،دار النهضة العربية،لبنان،ص124.

وكذلك العديد من البارونات والأمراء والفرسان الحضور، كما أن من بين الذين استلموا الصليب في ذلك الاجتماع من لم يشارك في الحملة فعلا مثل ملوك قشتالة وأرغوانة والبرتغال[1].

حيث يقول ابن خلدون" وكان الذين أجابوه– لويس التاسع للغزو ببلاد المسلمين من ملوك النصرانية ملك الأنكتار وملك أسكوسنا وملك برشلونة واسمه ريدراكون وجماعة آخرون.[2]

هذا بالإضافة إلى أن كثير ممن قبلوا الاشتراك فيها لم يفعلوا ذلك عن اقتناع وإنما مسايرة للملك وكسبا لوده، ومع ذلك ينبغي أن لا نعتقد أن الدعوة لحملة صليبية جديدة كانت كصرخة في واد وأنها لم تلقي استجابة وحماسا وأن المناصر الوحيد المؤمن بها كان لويس التاسع فقط وأن قوة شخصيته ومكانته في النفوس هما اللتان مكنتاه من فرضها على المشتركين فيها، وإنما كان هناك العديد يتمنون على الملك القيام بهذه الحملة، لذلك فإن لويس التاسع لم يكترث كثيرا بصوت المعارضة الذي ثار في وجهه، وبدأ في الاستعداد لتلك الحملة.

وكان على لويس التاسع أن يولي موضوع تمويل الحملة جل اهتمامه إذا كان عليه أن يتدبر أمر الأموال اللازمة لشراء الأسلحة والتموين واستئجار الأسطول اللازم لنقل الجند هذا بالإضافة إلى المعونات المالية الضخمة التي كان عليه أن يدفعها للكثير من المشاركين في الحملة لمساعدتهم على تجهيز أنفسهم للرحيل، وبالتالي يمكننا تصور المبالغ المالية الضخمة التي كان على الملك جمعها لمواجهة نفقات الحملة، ولذلك أخذ يبحث عن هذا المال في كل سبيل، واتخذ عدة إجراءات هامة تكفل له الحصول على حاجته منه، فعلاوة على استمراره في تحصيل ضريبة (1%) التي كان قد أقرها البابا أربان الرابع طلب من خليفته البابا كلمنت الرابع الموافقة على فرض ضريبة جديدة فأقر هذا فرض ضريبة العشر لمدة ثلاث سنوات بالرغم من المعارضة والاستنكار الذي واجهته تلك الضريبة من قبل الكثيرين[3].

1–ارنست باركر: المرجع السابق، ص127.

2– عبد الرحمان بن محمد بن خلدون الحضرمي: **ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر**، ج6، دار الفكر، لبنان، 2001، ص291.

3– محمود سعيد عمران: **تاريخ الحروب الصليبية**، دار المعرفة الجامعية، 2000، ص 340.

حيث يقول المقريزي في كتابه السلوك "بعث لويس التاسع إلى البابا خليفة المسيح بزعمهم، فكتب البابا إلى ملوك النصارى بالسير معه وأطلق يده في أموال الكنائس يأخذ منها ما شاء"[1].

وعلى صعيد آخر في نطاق هذه الاستعدادات دخل في مفاوضات مع كل من البندقية وجنوة لاستئجار الأسطول اللازم له، وقد انتهت هذه المفاوضات أخيرا بعقد اتفاقية مع جنوة لهذا الغرض دون تحديد وجهة السفر مبالغة منه في التعتيم على هدف الحملة وكل ما عرفه الجنويون أن على أسطولهم أن يكون مستعدا للإبحار في مايو سنة 1270.

كما أعطت هذه الاتفاقية للملك الفرنسي الحرية لاستعمال هذا الأسطول أكبر مما كان عليه الحال في سنة 1240، فقد نصت أن للملك الحق في أن يتوقف في أي ميناء أو جزيرة يشاء لمدة لا تتجاوز الشهر، يعود بعدها للإبحار وله أن يتوقف به مرة أخرى إذا يشاء ويمكنه الاحتفاظ به إلى ما بعد انقضاء فصل الشتاء مقابل دفعة إضافية مقدارها خمس المبلغ الأساسي المتفق عليه، وبناء على ذلك سرعان ما بوشر في تجديد أسوار مدينة (aignes – mortes) واعداد مينائها ليكون نقطة انطلاق الحملة، وأخيرا أعلن لويس التاسع في مجلسه يوم 9 فبراير سنة 1268 قراره بأن موعده سفره سيكون في مايو سنة 1270 / 668 هـ[2].

1- تقي الدين أبي العباس أحمد بن علي بن عبد القادر العبيدي المقريزي: **السلوك لمعرفة دول الملوك**،ج1، تحقيق محمد مصطفى زيادة، القاهرة، 1934، ص364.

2- حسين ممدوح: **الحروب الصليبية في شمال إفريقية وأثرها الحضاري**، ط1،عمان، 1998، ص 286.

المبحث الثاني: رحيل لويس التاسع من باريس واجتماع كالياري

كانت الأشهر التي سبقت رحيل الملك الفرنسي مكتظة بالأعمال بالنسبة له، فقد كان يشرف على الاستعدادات الجارية للحملة على قدم وساق ويوجه دعاتها ويزودهم بنصائحه لإثار حماس شعبه وحميته الدينية لحث أبناء هذا الشعب على مرافقته، ويتابع تنفيذ تعليماته بشأن ضرورة التمسك بالشعائر الدينية وحضور الصلوات والمحافظة على الأمن والنظام في كافة أنحاء المملكة ومعاقبة المجرمين والفساق والمارقين وكل من تسول له نفسه تعكير صفو الأمن[1].

وما أن اقترب موعد الرحيل حتى شرع في تنظيم شؤون أسرته، فزف ابنته بلانش إلى فرناند ملك قشتالة كما زوج ابنته مارجريت إلى دوق(Brabant)، ثم بدأ في تحرير القسم الاول من وصاياه فأوصى لابنه الأكبر وولي عهده فيليب بكل ممتلكاته العقارية، ولابنه الثاني حنا الحزين بمنطقة فالوا، ولابنه الثالث بطرس (Pierre)بمنطقتي (Percha)و(Alangonk) وأما ابنه الرابع روبيرت وابنته اجني الصغيرين فقد أوصى لهما بمبالغ نقدية كبيرة، وعهد لابنه فيليب بتنفيذ هذه الوصية.

أما شؤون الحكم في المملكة فبالرغم من بقاء زوجته الملكة مارجريت في فرنسا فإنه عهد بها إلى هيئة مكونة من رئيس دير القديس دينيس[2]، والكونت سيمون كونت نزل(Simon de Nesle) وأمر مجلس الملك باستثناء الأساقفة من أعضائه باستشارتهما في كل صغيرة وكبيرة وعهد إلى أسقف باريس(Etieme Tiempiei) بشؤون الإيرادات الملكية في المملكة وليحلل نفسه[3]

1- سامي بن عبد الله بن احمد المغلوث: المرجع السابق،ص179.

2- **أنبا دينيس الأسقف**، اول أسقف باريس والقديس الحامي لفرنسا، يعقوب ملطي، **قاموس أباء الكنيسة وقدسييها مع بعض شخصيات كنيسة**،ص76.

3- محمد المطوي العروسي : **السلطنة الحفصية**، دار العرب الإسلامي ،لبنان ،1986، ص160.

من أي ظلم يكون قد أوقعه عماله بالرعية أرسل مندوبين عنه إلى جميع أنحاء مملكته لاستماع إلى ظلامات الشعب والعمل على إزالة أسبابها، وأوصى بتسديد ديونه.

وصل لويس التاسع إلى ميناء (Aignes Mortes) في أوائل شهر مايو 1270 م ليجد أن الجنويين لم يوفوا بوعدهم، فلم يرسلوا أسطولهم في الموعد المحدد فكانت هذه هي الصعوبة الاولى التي صادفته فقد أضاع عليه تأخر الجنويين وقتا ثمينا كان في امكانه الاستفادة منه في القيام بعمل قبل توغل الصيف بحرارته، كما أنه حرمه من السفر إلى الديار المقدسة إذا أراد ذلك، وكان عليه أن ينتظر قدوم ذلك الأسطول شهرين آخرين في زيارة المشاهدة المقدسة القريبة ،وجعل إقامته خلال هذه المدة في (Saint-Gills) بينما أمضى الجند هذا الانتظار في جو من الكآبة والانفعالات العصبية، فوقع العديد منهم فريسة المرض،فكان ذلك كله نذيرا بالمتاعب التي ستصادفها الحملة بعد ذلك مما كان له بلا شك أثر سيء على نفسيات الجنود وروحهم المعنوية[1].

وفي أواخر يونيو سنة 668هـ/1270م وصلت السفن الجنوية إلى الميناء المذكور فاستقلها الجند لا كما ينبغي من النظام وإنما في فوضى واستغرق شحن السفن بالمؤن والمعدات بضعة أيام نفد فيها صبر الجند، وفي يوم الثلاثاء الأول من شهر يوليو سنة 1270م ركب الملك سفينته بعد أن خطب في الجند خطبة حثهم فيها على نصرة دينهم وفي اليوم التالي أقلع الاسطول متجها إلى ميناء كالياري بجزيرة سردينيا، حيث كان على السفن التي ستقلع من مرسيليا ببقية الجيش أن تلحق به إلى ذلك الميناء، وبعد ابحار شاق تسبب فيه هبوب عاصفة بحرية على الاسطول في خليج ليون شتتت سفنه، بدأت تلك السفن في الوصول إلى ميناء كالياري في يوم الثلاثاء الثامن من الشهر نفسه.

كانت جزيرة سردينيا وقتئذ تابعة لمدينة بيزا التي كانت في حالة عداء مع جنوة صاحبه ذلك الاسطول، لذلك ما إن رأى أهل كالياري السفن الجنوية قادمة نحو بلادهم حتى ظنوا الظنون ورفضوا السماح لها بالدخول الميناء[2].

1- سامي بن عبد الله المغلوث: المرجع السابق،ص175.

2- محمد المطوي العروسي :**الحروب الصليبية في المشرق والمغرب**، المرجع السابق، ص 136.

الأمر الذي استفز الفرسان الشبان المشاركين في الحملة فجعلهم يطالبون بسحق تلك المدينة، ولكن الملك الفرنسي تذرع بالصبر وفضل مفاوضتهم كراهية منه لسفك دماء المسيحيين، فأرسل الملك مقدم الأسطول إلى المشرق على مراقبته الميناء وبعض الشخصيات الاخرى في البلد بطلب السماح له بالدخول الميناء ولكن هؤلاء رفضوا بعناد شديد، كانوا مغالبين في عنادهم لأنهم كانوا يخشون على أنفسهم من دخول الجنويين إلى الميناء.

وفي صباح اليوم التالي أرسل إليهم الملك مقدم الاسطول من جديد ومعه عدد من الضباط وبعض المقربين إليه ليطمئنهم ويزيل خوفهم، فأجابوا أخيرا بأنهم يرغبون في دخول الملك وأقربائه وحاشية إلى المدينة شريطة أن يحميهم من أعدائهم الجنويين إذا فكروا في إصابتهم بمكروه، واثر هذا الاتفاق أمر الملك بنزول المرضى من السفن إلى البر وعهد إلى بعض رجاله بمساعدتهم وحمايتهم والسهر على راحتهم حيث مات بعضهم فيما بعد في حين ظل الباقي وكانوا حوالي المائة على قيد الحياة[1].

أما الملك فقد رفض النزول إلى البر وبقي في سفينته في انتظار وصول السفن القادمة من مرسيليا، وفي يوم الجمعة 11 يوليو لحق به ملك نفارة وكونت فلأندرز وبذلك تكاملت سفن الحملة، وفي الصباح اليوم التالي السبت 12 يوليو بادر الملك إلى عقد مجلس حربي ضم كبار المشاركين في الحملة وكبار العسكريين والمستشارين للتباحث في امور الحملة وقد دام هذا الاجتماع يومي السبت والأحد 12 و13 يوليو1270م / 668هـ حيث كان قرار الاتجاه إلى افريقية قد اتخذ قبل ذلك الوقت بمدة طويلة.[2]

وكون كالياري مركز التجمع يؤكد ذلك لان جزيرة سردينيا ليست على الطريق إلى المشرق، ثم إن لويس التاسع لم يكن يتخذ قراره في الاتجاه إلى افريقية إلا في ذلك الوقت أوفي ربيع سنة 1270م / 668هـ

1-حسين ممدوح: المرجع السابق،ص287.

2-محمد المطوي العروسي: **السلطنة الحفصية**، المرجع السابق، ص162.

بل يجب أن يكون قد اتخذ قراره ذلك في أواخر سنة 1268م/667هـ ويعود بعد ذلك إلى القول بان الذي حدث في كالياري هو إعلان ذلك القرار على الجنود البحارة، والحقيقة كما نراها أن هنالك دليلا واضحا أن لويس التاسع كان قد اتخذ قراره ذلك قبل اجتماع كالياري بزمن طويل، بل وإن المشاركين في الحملة كانوا يعلمون بهذا الأمر.

والدليل الذي يقطع الشك باليقين هو سفارة المستنصر الحفصي التي أرسلها إلى لويس التاسع، إذ كيف يعلم المستنصر بعزم لويس التاسع على غزو تونس ويرسل له سفارة لمفاوضته ومحاولة استرضائه عن عزم تقابله في أوائل أكتوبر سنة 1269م/ صفر سنة668 أي قبل اجتماع كالياري بأكثر من عشرة أشهر دون أن يكون الملك الفرنسي قد اتخذ قراره بعد[1].

وقد أشار ابن خلدون عن عودة السفراء إلى تونس من بلاط الملك الفرنسي: (فوصل رسل السلطان منذرين بشأنهم)[2]، كما ذكره ابن الشماع في الأدلة النورانية: (فطلب منه أي من لويس التاسع – السلطان المهادنة، فامتنع من ذلك، وأغلظ للرسول، وعرفه أنه متوجه إليه)[3]، وأما عن موعد اتخاذ القرار فإنه ما دام السفراء قد وصلوا إلى بلاط لويس التاسع في أول أكتوبر سنة 1269 / صفر 668هـ فلا بد أن يكون المستنصر قد علم بعزم لويس التاسع قبل ذلك التاريخ بفترة طويلة لا تقل عن الخمسة أشهر وهي المدة اللازمة له لدراسة هذه المعلومات والتباحث مع مستشاريه واتخاذ قرار إرسال السفارة ثم إعداد الهدايا والمدة التي احتاجتها السفارة لقطع المسافة الطويلة بين تونس وباريس، وبالتالي كان لابد أن يكون القرار قد اتخذ قبل ربيع سنة 1269م موعد انفتاح سبل السفر البحري بين البلدين الذي فيه فقط يجري تناقل الأخبار.

1-أرنست باركر: المرجع السابق ،ص129.

2- ابن خلدون: المصدر السابق، ج6، ص 292.

3- أحمد أبو العباس ابن الشماع: **الأدلة البينية النورانية في مفاخر الدولة الحفصية**، تحقيق عثمان الكعاك، تونس، 1904، ص 66.

يضاف إلى ذلك أن لويس التاسع كان يمني أبناء الشعب الفرنسي بنهب مدينة تونس في محاولة منه لإغرائهم للمشاركة في الحملة مما جعل كلا الأمرين ينفي أي شك في أن الجند لم يكونوا على علم بوجهة الحملة ولربما كان الوحيدون الذين جهلوا هذا الأمر هم البحارة الجنوية نظرا لان اتفاقية استئجار لم تحدد وجهة السفر حرصا من الملك الفرنسي على التعتيم على مقاصده الحقيقية عند عقدها في تلك المرحلة المبكرة من إعداد الحملة.

فبعد انقضاء ذلك الاجتماع بيومين أي في يوم الثلاثاء 15 يوليو سنة 1270م أقلع لويس بمجموعة قاصدا افريقية بعد إقامته في كالياري دامت ثمانية أيام وجد لديه فيها وقت طويلا للتعبد[1].

ويصف محي الدين بن عبد الظاهر في كتابة عن نزول الصليبين في قرطاجة: "وفي محرم من هذه السنة 668 تواردت الأخبار بأن الفرنسيس نزل على تونس، وأنه كان نزوله على بلاد البربر، واستظهر الفرنج على المغاربة، وقاربوا تونس وكانت عدد خيالة الفرنج مقدار خمسة آلاف فارس"[2].

أما ابن خلدون فيصف هجومهم بقوله "استفحل ملكهم عند تراجع ملك الروم وأجازوا البحر إلى أفريقية مع الروم فملكوها ونزلوا أمصارها العظيمة مثل سبيطلة وجلولا وقرطاجة ومرناق وغيرها من الأمصار"[3]، في حين ان ابن زرع الفارسي في كتابه يقول "فنزل ملك الروم الفرنسي مدينة تونس في مراكب لا تحصى، فنزلوا في البر وملكوا حصن القلعة، وهم في أمم لا يعلم لهم عدد ومددهم في البحر متصل وقيل كان جملة من نزلها من فرسان الروم أربعين ألف فارس ومن الرماة مئة ألف رام، ومن الرجال المقاتلة مئة ألف راجل فأقام يقاتل تونس"[4].

ويحدد ابن القنفد وقت نزولهم بقوله "إن وصول الصليبين كان في صلاة الظهر يوم الخميس 26 ذي الحجة سنة 668 هـ[5].

1- حسين ممدوح: المرجع السابق، ص289.

2- محي الدين بن عبد الظاهر: **الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهرة**، الرياض، 1292م، ص 374.

3- ابن خلدون: المصدر السابق، ج6، ص425.

4- أبو الحسن علي بن عبد الله ابن أبي زرع الفارسي: **الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية** ، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط،1972، ص 121.

5 – ابن القنفد: المصدر السابق، ص 131.

أما ابن أبي زرع فيقول "أن وصولهم كان بعد صلاة العصر يوم الأربعاء وليلة الخميس الخامس والعشرين لذي الحجة من سنة ثمان وستين وستمائة[1].

وكما ذكر ابن خلدون بأنه" لم يكن نزول الصليبين من سفنهم دفعة واحدة بل على دفعات، كانوا ستة ألاف فارس وثلاثين ألف رجل أقلتهم ثلاثمائة سفينة مختلفة الأنواع و الأحجام"[2].

أمر الملك مقدم الأسطول بالتقدم للارتياد مكان النزول، وبالفعل اتجه المذكور ببعض القوات إلى مرسى قريب من هضبة قرطاجة المسماة حاليا بهضبة بيرصا، واستولى عليه ونزل إلى البر دون مقاومة **الملحق رقم 03 ص 63**، وقد وجد في ذلك المرسى بعض السفن التجارية الصغيرة فاستولى عليها، وحينما علم الملك فيما بعد أنها تخص بعض تجار النصارى سلمها لأصحابها، وكان بعض الجند المسلمون يقفون بين حين وأخر على الرابية المشرفة يراقبون الصليبين دون أن يحاولوا الاقتراب منهم ثم يختفون.

وعندما أرسل مقدم الأسطول للملك يخبره بالاستلاء على المرسى وما شاهده من تصرفات المسلمون يطلب منه قوة إضافية لتعزيز الموقع ونجدته عند الحاجة إذا هاجمه المسلمين دهش وظن أن في الأمر مكيدة، فعقد مجلس حربي للتباحث في الأمر وبعد مناقشات طويلة تنازل الحضور فيها رأيين أحدهما يقضي بضرورة الاستجابة لمطلب مقدم الأسطول في حين كانت خلاصة الأخر أنه إذا كان في الأمر مكيدة فإن هذه الطريقة في النزول إلى البر غير مجدية.

قرر الملك أخيرا الاخذ بالرأي الأول فأرسل فيليب (d'Evreux) وأحد قادة الأسطول تصحبهما القوات اللازمة لدعم قوة مقدم الأسطول كما كلفهما بالإضافة إلى ذلك دراسة الوضع فإن وجداه مناسبا نزل الجيش ليلا، وإن تعرضت قواتهما للهجوم انسحب الجميع عائدين إلى السفن[3].

1 – ابن أبي الزرع: **الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس**، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1972، ص 263– 404.

2– ابن خلدون: المصدر السابق، ج6، ص292.

3- محمد المطوي العروسي: **السلطنة الحفصية**،ص166.

وما إن انبلج صباح يوم الجمعة حتى بدأ الصليبيون يشاهدون القوات الإسلامية تأخذ مواقعها حول الميناء الأمر الذي جعل الملك يعقد اجتماعا آخر قرر فيه المجتمعون قبول التحدي والنزول إلى البر.

بدأت سفينة الملك تسير نحو الميناء وتتبعها سفن الأسطول الأخرى، وبمجرد رسوها فيه بدأ الصليبيون في مغادرتها إلى البر.

أما القوات الإسلامية التي تواجدت في المنطقة فيبدوا أنها كانت في مهمة مراقبة فقط ولم يكن هدفها الاشتباك مع العدو، وإن كان لم يخل الامر من بعض المناوشات بين الطرفين.

وفي صباح يوم السبت 19 يوليو1270م / 28 ذي القعدة 668 هـ تقدمت بعض القوات الصليبية نحو ربوة قريبة يقوم عليها حصن صغير بغيه احتلالها، فتصدى لهم بعض جند المسلمين واشتبكوا معهم ولكن القوات الصليبية تمكنت من دحرهم واحتلال الحصن حيث وجدت به بعض خزنات مليئة بالمياه، ولكن سرعان ما تجمعت القوات الإسلامية حول ذلك الحصن وكادت تحصر الصليبين بداخله[1].

فهب الملك الذي كان يراقب الموقف من معسكره لأنجادهم بقوات إضافية، وكان من الممكن أن يتبعهم فرسان كثيرون لو تم انزال كافة الخيول من السفن إلى الأرض التونسية، ولم يمهل المسلمون الصليبيين حتى يتصلوا بأصحابهم فبادروا إلى الاشتباك معهم نضحا بالنبال التي كانوا كثيرا ما يصوبونها نحو خيولهم لقتلها.

وهدفهم من ذلك شل حركة الفرسان الذين كانوا دائما عماد قوة الجيوش الصليبية في الشرق والغرب على حد سواء، وعنصر الصدام فيها لذلك كان المسلمون في معاركهم التي كانوا يخوضونها ضد تلك الجيوش، أكثر ما يأخذون في حسبانهم هو إبطال فاعلية هذه القوة وهذا ما حدث في هذه المعركة حينما لجأ المسلمون لهذه الحيلة الذكية للتخلص من خطر الفرسان وهكذا فشل هذا الهجوم ولما كان اليوم التالي هو يوم الاحد ويوافق 20 يوليو سنة 1270م / 29 ذي القعدة سنة 668 خلد الصليبيون إلى الراحة فلم يخرجوا للقتال[2].

1- حسين ممدوح: المرجع السابق، ص293.

2 – محمد العروسي المطوي: **الحروب الصليبية في المشرق والمغرب**، المرجع السابق، ص 137.

وفي صباح يوم الاثنين 21 يوليو سنة 1270 / 30 ذي القعدة سنة 668هـ خرجت القوات الصليبية بأعداد كبيرة لمهاجمة ذلك الحصن من جديد ونجحت في إزاحة المسلمين عن الربوة واحتلالها ونصبت خيامها في الفج الواسع حولها حيث تعددت أبار المياه الصالحة للشرب فيها، ولكن مقدم الاسطول وربابنة السفن وبعض قواد الجند بينوا للملك في اجتماعهم به في اليوم التالي الثلاثاء 22 يوليو سنة 1270م/1 ذي الحجة 668هـ أن حصانة ذلك الموقع ليست بالمستوى المطلوب[1].

وأن الأفضل منه هو الربوة القريبة التي كانت تقوم عليها مدينة قرطاجة في السابق وتمثل ربوة قرطاجة موقعا حصينا بالفعل فهي تواجه مدينة تونس ولا يفصل بينهما إلا البحيرة من ناحية وتطل على البطاح الممتدة على شاطئ البحيرة، بحيث يسهل منها مراقبة تحركات المسلمين في تلك البطاح والروابي القليلة الارتفاع المحاذية لها من ناحية ثانية، وليست بعيدة عن البحر مما كان يتيح للمقيم بها الاتصال بالخارج بسهولة، وكانت المدينة في ذلك الوقت خرائب مائلة الجدران باستثناء حصن كبير تمركزت فيه بعض القوات الإسلامية[2].

حيث وصفه صاحب الاستبصار في كتابه "وليس يسكن منها – قرطاجة – الأن إلا قصر واحد يسمى بالمعلقة وبناؤه من أغرب ما يكون من البناء، مفرط العظم والعلو، أقباء معقودة بعضها فوق بعض طبقات كثيرة، مطل على البحر وهو حصن عظيم".

فأبدوا استعدادهم للاستلاء على ذلك الحصن إذا امدهم الملك بقوات اللازمة فوافقهم على اقتراحاتهم وفي يوم الخميس 24 يوليو1270م/ 3 ذي الحجة 668هـ زحفت فرق صليبية ناحية الحصن وسار الملك في إثرها بسبعة عشر فرقة أخرى[3].

1- سعيد محمود عمران: **تاريخ الحروب الصليبية**، المرجع السابق، ص343.

2 – حسين ممدوح: المرجع السابق، ص295– 296.

3 – مجهول مؤرخ مراكشي عاش في القرن 6: **كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار**، تحقيق سعد زغلول عبد الحميد، جامعة الإسكندرية، كلية الأدب، 1951، ص 122.

فتصدى المسلمون لهم على قلتهم في ذلك الموقع بالنسبة للمهاجمين واشتبكوا مع فرق الطليعة ولكن هؤلاء تسلقوا أسوار الحصن ودخلوا على حاميته، التي كانت تقدر بحوالي مائتي جندي وذهل المسلمون الآخرون وكأنهم أصيبوا بالجمود، فلم يهبوا النجدة لإخوانهم في الحصن فقتل من هؤلاء ما قتل وتمكن البعض من الفرار واختفى الباقون في سراديب الحصن وبعد سقوط ذلك الحصن في يد الصليبين بدأوا في العمل على تطهيره من المسلمين المختفين في الأقباء والسراديب كل من عثروا عليه منهم دون أن يعنوا أنفسهم بأخذ أسير واحد منهم ثم أضرموا النار في تلك السراديب لإحراق باقي المختفين أحياء، فاحترق منهم من احترق ومات الباقون اختناقا بالدخان.

وكل ذلك جرى بأمر الملك القديس الورع الشديد التدين وبعد أن تم له ما أراد من سفك دم هؤلاء المسلمين بتلك الطريقة الوحشية، لم يستطيع البقاء في الحصن لأن رائحة الجثث كانت تزكم أنفه فنصب خيمة في العراء، وضرب الجيش خيامه حول خيمة الملك أما الحصن فبعد تنظيفه من الجثث اتخذ مقرا للنساء اللواتي كن يصاحبن الحملة ومستشفى للعلاج المرضى والجرحى[1].

وشرع الصليبيون بعد ذلك في تحصين معسكرهم ويصف الباجي المسعودي تحصيناتهم واشغالهم الدفاعية بقوله" فوصلوا ما فصله الخراب من أسوارها – أي قرطاجة – بألواح الخشب ونضدوا شرفاتها وأداروا على السور خندقا بعيد المهوى وتحصنوا "[2].

1- أرنست باكر: المرجع السابق، ص131.

2 – الباجي المسعودي: المصدر السابق، ص23.

المبحث الثالث: مواجهة المستنصر الحفصي للحملة الصليبية

أيقن المستنصر الحفصي حينما عاد سفراؤه من بلاط لويس التاسع بفشل مسعاه السلمي، ويبدو أن هؤلاء السفراء زودوه بمعلومات هامة عن الحملة وأن مدينة تونس بالذات هي هدفها بدليل أنه ركز جهوده في الدفاع عنها وربما كان يعلم – أو أدرك ذلك بحدسه مسبقا بمكان نزول الصليبين ودليل ذلك ما ذكره ابن خلدون في كتابه "وندم السلطان على إضاعة الحزم في تخريبها"[1]، فاستنفر المستنصر أهل إفريقية للجهاد وكتب إليهم بقوله تعالى "**انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ**" [2].

وبدأت القوات ترد إليهم من شتى نواحيها وعلى حسب قول ابن القنفد "فقد خرج الصلحاء والفقهاء والمرابطين لمباشرة الجهاد بأنفسهم"[3]وذكر ابن الدباغ في كتابه "والذين كان من بينهم الشيخ سالم القديدي والشيخ عمار المعروفي الذي توفى بالوباء بعد رحيل الصليبين ودفن بقرية إريانة")[4].

ويقول ابن خلدون في كتابه العبر" بان سواحل رادس امتلأت بالمرابطين والمطوعة وجند الأندلس، وقد بلغ عدد هؤلاء جميعا زهاء أربعة آلاف فارس عدا المشاة الذين كانوا يعدون بالألوف، وقد تولى، قيادتهم جميعا محمد بن أبي الحسين رئيس الدولة[5]، كما قدمت إليه جموع الأعراب الهلالية.

وتبعهم أعراب برقة الذين أمرهم الظاهر بيبرس بالمسير الى تونس وانظموا إلى صفوف المدافعين، هذا علاوة على الجيش النظامي الذي كان يتألف في غالبيته من فئة الموحدين وفرق الرماة من الأغزاز والأندلسيين وكان المستنصر يشرف بنفسه على تنظيم هذه القوات وتوزيعها في مواقعها، وكذلك اهتم بالعتاد والأسلحة وتوفيرها للجند ثم اصلاح

---

1 – ابن خلدون: المصدر السابق، ج6، ص293.

2– سورة التوبة، الآية 41.

3– ابن القنفد: المصدر السابق، ص 132.

4 – أبو زيد عبد الرحمن بن محمد الأنصاري الأسدي الدباغ: **معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان**، ج 3، تحقيق وتعليق محمد ما ضور، المكتبة العتيقة، تونس، ص 25.

5– ابن خلدون: المصدر نفسه، ج6، ص 292.

الأسوار وتحصينها وقد وجه عنايته إلى الناحية الاقتصادية لا سيما وأن البلاد كانت تمر في تلك الآونة في مرحلة عصيبة نتيجة المجاعة والوباء اللذان انتشرا فيها فكانت مجدبة شهباء[1].

"وزاد الحالة سوءا انقطاع تجار النصارى عن افريقية "[2]، كما كانت العادة في الوقت الذي يسبق كل حملة توجه إليها مما حرم أهلها استراد الغلال اللازم لهم، فأمر بتخزين أقصى ما يمكن تخزينه من الإنتاج المحلي من الحبوب والاقتصاد في استهلاكها قدر المستطاع، وحث الرعية على الاكثار من الزراعة فأمرهم بالحرث الكثير في جميع البلاد"[3].

"وعندما تواترت إليه الاخبار بقرب وصول الصلبيين، أرسل إلى نواحي المغرب العربي بالخبر يحث المسلمين على الجهاد فوافته الإمدادات من نواحي عديدة، إذا وصل إليه أبوهلال صاحب بجاية بجنده وجموعه، وسدويكش سكان مواطن صنهاجة بالبسائط الواقعة بين قسنطينة وبجاية، ثم جموع هوارة، كما أمده ملوك المغرب من زناتة.

وخرج إليه محمد بن عبد القوي بعسكر بني توجين وهم سكان حفافي وادي شلف والسرسو"[4]،فتعاظمت قوة المستنصر بهذه النجدات.

فبادر المستنصر إلى عقد اجتماع ضم كبار مستشاريه وأعيان دولته من شيوخ الموحدين والأندلسيين للبحث عن الطريقة المثلى في مواجهة الغزاة، وكان ما طرحه للبحث هو العمل بأحد رأيين إما التصدي للصلبيين، ومقاتلتهم ومنعهم من النزول إلى البر حتى تنفذ ذخيرتهم من الماء والزاد فيضطرون إلى الانسحاب والعودة إلى بلادهم أما الفريق الأخر الذي رأى السماح لهم بالنزول فقد كانت حجته أنه ينبغي نزولهم عند الحضرة ذات الحامية القوية والسلاح والعدد والناس مهيؤون لقتالهم ومن ثم حصرهم والقضاء عليهم خوفا إذا حيل بينهم وبين النزول بقربها أن يطرقوا بعض الثغور الضعيفة ويستولوا عليه ويتمركزوا فيه فيصعب حينذاك إخراجهم منه.

---

1 – أبو العباس أحمد بن الحاج بالضياف: **اتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان**، ج1، الدار التونسية للنشر، ط2، 1976، ص21.

2 – ابن خلدون: المصدر السابق، ج6، ص290.

3– حسين ممدوح: المرجع السابق، ص297.

4– ابن خلدون: المصدر نفسه، ج6، ص 293.

وبعد مناقشة كلا الرأيين تفصيلا تقرر العمل بالاقتراح الثاني، ومن الملاحظ في الرأي الأول أن هذه الطريقة في المقاومة غير مجدية ذلك لأن البحر كان مفتوحا وراء الأسطول الصليبي ويمكنه من الحصول على التمويل الكافي من صقلية أو سواها، بل قد يؤدي ذلك إلى قدوم شارل مللك الصقليتين وجيشه الذي يضاعف الخطر الصليبي ولن يتمكن بذلك المسلمون من الصمود في وجهه مدة طويلة ويدل الرأي الثاني على قدر غير قليل من التخاذل على المستوى الرسمي وبعد الطبقة الحاكمة عن التحلي بروح الفاتحين المسلمين الذين ضربوا أروع الأمثلة في الجهاد والبطولة والاستشهاد، فكان ما هدف اليه هؤلاء هو حصر الصلبيين في موقع معين ومضايقتهم ثم بعد ذلك مفاوضتهم واسترضاؤهم بالتنازلات ومنح تغريهم بالانسحاب الأمر الذي تم بالفعل فيما بعد.

وكان الأصح بالمستنصر إنشاء أسطول قوي ومواجهة الصلبيين في عرض البحر وتحطيم أسطولهم لكي لا يستهينوا بقوة المسلمين وبلادهم حتى لا يعاودوا الكرة، وقد كان هذا الراي الذي أخذ به يمثل الجهات الرسمية[1]، ولا يمثل كافة قطاعات القوات الإسلامية فقد كان العديد من تلك القطاعات يتمتع بروح معنوية عالية يتطلعون لقتال الصلبين ويدل على ذلك الأشعار في تلك الآونة ،فقد قال الشاعر التونسي أحمد بن إسماعيل الزيات يتوعد لويس التاسع:

يا فرنسيس هذه أخـــــــــــــــــــت مصـــــــــــر فتهيأ لما إليه تصير

لك فيها دار ابن لقمـــــــــــــــان قبر وطواشيك منكر ونكيـــــــــــــر.[2]

لكن المستنصر اكتفى بتشكيل مجلسا دائما للحرب برئاسته والتزم القعود بإوانه مع بطانته وأهل اختصاصه مثل الشيخ أبوسعيد المعروف بالعود ابن أبي الحسين رئيس دولته وقاضيه ابن البراء وأخو العيش وغيرهم"[3] .

1- محمد المطوي العروسي: **الحروب الصليبية في المشرق والمغرب**،ص139.

2- ابن القنفد: المصدر السابق ،ص 111-112.

3- ابن خلدون: المصدر السابق، ج6، ص293.

ويصف ابن الشماع مجلس المستنصر بقوله "حيث كانت ترد إليه الأخبار ويدير من ذلك المجلس دقة الحرب، وكان ملازما لبابه ألف فارس من الشجعان يقفون عند باب الغدر."[1]

وباعتماد هذا الاسلوب تمكن الصليبيون من النزول بقرطاجة والتحصن به.

المبحث الرابع: المقاومة الإسلامية

بدأت بوادر المقاومة الإسلامية للصلبيين منذ نزول هؤلاء إلى البر، ولكن هذه المقاومة اتخذت في الأسبوع الأول طابع المناوشات فقط دون التورط في اشتباكات كبيرة مع الغزاة، وإن كان الصليبيون قد تمركزوا في قرطاجة ونواحيها، فإن القوات الإسلامية لم تلبث أن طوقتهم من كل جانب باستثناء ناحية البحر كما كانت تقضي خطتهم، وبذلك بدأت الدهشة والرهبة التي شعر بها المسلمون عند وصول هؤلاء في الزوال وأخذت تتبدل بجرأة عليهم زاد فيها تجميد الصلبيين لنشاطاتهم في انتظار وصول شارل صاحب أنجو بجيشه من صقلية والذي كان قد أرسل إلى أخيه لويس التاسع في 24 يوليو سنة 1270/ 668هـ يطلب منه عدم شن أي هجوم رئيسي أو الدخول في مفاوضات مع المستنصر، لحين قدومه فاستجاب الملك لذلك لأنه كان يشعر بضرورة زيادة قوة الجيش وتدعيمه قبل الدخول في معركة فاصلة مع المسلمين، لذلك زادت حدة المقاومة الاسلامية مما أزعج الصلبيين وجعلهم لا يذوقون طعم الراحة[2].

لكن بقيت تلك الهجمات التي كان يشنها المسلمون على أطراف المعسكر الصليبي محدود النتائج إذ كان الهدف منها الازعاج والمضايقة فقط وربما لاستدراج بعض الصلبيين للخروج من المعسكر، لمطاردتهم وقتلهم وبمرور الأيام زادت هذه الهجمات على المعسكر الصليبي حتى بلغت خمس مرات في اليوم الواحد[3].

1- ابن الشماع: المصدر السابق، ص78.

2- حسين ممدوح: المرجع السابق، ص 301.

3- سعيد محمود عمران: **تاريخ الحروب الصليبية**، المرجع السابق، ص344.

وتفنن مسلمو تونس في ابتكار أساليب تصيد جند العدو مثلما فعل اخوانهم في مصر قبل ذلك بعشرين عاما، فذهب ثلاثة نفر منهم الى معسكر الصلبيين وتظاهروا بقبول التنصير وطلبوا تعميدهم، فسرى الملك الفرنسي وأمر بالإحسان اليهم والسهر على راحتهم ثم تبعهم حوالي مئة آخر أظهروا أنهم قدموا لنفس الغاية.

وبينما كان الصليبيون يحتفون بالقادمين الجدد وإذا بالمسلمين يشنون الغارة على المعسكر الصليبي فاذا بهؤلاء الذي تظاهروا بالارتداد يسلون اسلحتهم من تحت عباءاتهم، ويفاجئون العدو من داخل المعسكر ويساعدون، ولم يتمكن الجيش الصليبي من صد هذه الغارة الا بصعوبة بالغة وبعد ان تكبد خسائر كبيرة[1].

في حين خرج المسلمون من المعسكر مع اخوانهم، أما المسلمون الثلاثة والذين كانوا في حقيقة امرهم طعما لخداع الصلبيين، فقد واصلوا خادعتهم واوهموهم بانهم يرغبون في العودة الى قومهم ليعودوا بألفين منهم في اليوم التالي الى الملك لتنصيرهم فسمح لهم بالمغادرة للمعسكر وسط احتجاجات البعض الذي أدركوا حقيقة مهمة هؤلاء ونادوا بقتلهم فلم يسمع قولهم، وهكذا خرج هؤلاء من المعسكر ولم يعود إليه مرة أخرى[2].

ولعل من أكبر هجمات المسلمين على المعسكر الصليبي في تلك الفترة كان ذلك الهجوم الذي شنه عبر البحيرة، لقد كان الصليبيون حينما خندقوا حول معسكرهم قد تركوا الجانب المطل على البحيرة تونس دون خندق نظرا لان معسكر الصليبي كان مشرفا عليها فإن ذلك كان يتيح الفرصة لمشاهدة تحركات المسلمين فيها والاستعداد لهم قبل وصولهم إلى المعسكر وبالرغم من ذلك فإن المسلمين عملوا على الاستفادة من ميزة عدم تحصين الصليبين لتلك الناحية من معسكرهم فتسلل عدد منهم عبر البحيرة ليلا ودخلوا إلى المعسكر الصليبي ثم تبتعهم أعداد غفيرة من الأعراب وكبسوا المعسكر ودارت بين الطرفين معركة أخذ فيها الصليبيون خسائر جسمية. [3]

1- محمد المطوي العروسي: **السلطنة الحفصية**، المرجع السابق، ص166.

2- أرنست باكر: المرجع السابق، ص134.

3- حسين ممدوح: المرجع السابق، ص304.

حيث يقول ابن خلدون (وسلك بعض المسلمون طريقا في البحيرة واتبعهم العرب فأصبوا غرة في العدو فظفروا وغنموا)[1]، ومنذ ذلك الهجوم تنبه الصليبيون لخطورة البحيرة على معسكرهم فشددوا الحراسة من ناحيتها، ولم يكتفوا بذلك، بل سيروا بعض قطع أسطولهم بالرماة فيها لمنع المسلمين من اجتيازها مرة أخرى.

وأيا كان الأمر، فإن هذه المقاومة الإسلامية أثرت في معنويات الصليبين فأخذوا يفقدون حماسهم وبالرغم من أن المدد كان يأتيهم في الأساطيل (من البحر من صقلية والعدوة بالرجل والأسلحة والأقوات).[2]

إلا أن شعورهم بكونهم محاصرين، وتجميد نشاطهم الهجومي في انتظار شارل ملك الصقيليتين الذي تأخر كثيرا في الوصول والانضمام إليهم، قصر ذلك النشاط على الدفاع على أنفسهم ضد غارات المسلمين المفاجئة والمتكررة، وبقاءهم في حالة استنفار دائم، وفقدانهم الكثير من جندهم كل تلك الأسباب خلقت بينهم روح التذمر، وجعلتهم يتقدمون بالشكوى للقيادة العليا من بقائهم سلبيين في موقعهم لتلقي ضربات المسلمين.

لذلك عمدت تلك القيادة للقضاء على تذمر الجند بتنظيم طلعات عسكرية لبعض الكتائب خلال الفترة من 17 إلى 22 أغسطس سنة 1270م 28 ذي الحجة سنة 668هـ – محرم سنة 669هـ ولكنها كانت محدودة الأثر لم تكن تصل إلى حدود معسكر المسلمين الذي لم يكن يبعد عنهم إلا بضع كيلومترات[3].

1- ابن خلدون: المصدر السابق، ج6، ص 293.

2- ابن الشماع: المصدر السابق، ص 60.

3- مصطفى وهبة: المرجع السابق، ص57.

الأمر الذي أدى إلى نتيجة عكسية إذا حط من معنوياتهم إلى حد كبير، ثم زادت حالتهم سوءا بنقصان المياه الصالحة للشرب في معسكرهم، فأخذوا يحاولون الحصول عليه من المناطق القريبة ولكن ذلك كان يكلفهم في كل مرة العديد من القتلى، الأمر الذي جعل الملك يحاول التغلب على هذه الصعوبة بإرسال بعض أعوانه إلى صقلية للحصول على اللحم الطازج وما إليه من الأغذية لإطعام المرضى من الجند على الأقل. [1]

1-مصطفى وهبة: المرجع السابق، ص59.

المبحث الأول: أسباب فشل الحملة

إن من اسباب فشل الحملة الوباء الذي غير مجرى الاحداث، ففي أوائل شهر أغسطس 1270م أواسط ذي الحجة 668هـ تفشى الوباء بين الصليبين، فيذكر ابن خلدون في حديثه عن موت لويس التاسع (... ويقال أصابه مرض الوباء)[1]، أما ابن الشماع فيقول: (وأرسل الله عليهم وباء فمات كثيرا منهم)[2]، ويقول ابن أبي دينار (وأرسل الله وباء على جيشه فمات عدد كثير)[3].

ويقول ابن أبيك الدواداري (فأوقع الله في عسكره وباء عظيما)[4].

كما تفشى في الجند الصليبي أكثر من مرض نرجع أن يكون الملاريا وربما غيره من الأمراض التي يتسبب فيها سوء التغذية وتلوث المياه وحرارة الصيف مما يساعد على انتشار كثير من الأوبئة والأمراض، كما تسبب هذا المرض في وفاة بعض الشخصيات الهامة المشاركة في الحملة مثل الأمير حنا الحزين ابن الملك الذي مات في 3 أغسطس سنة 1270م، ونائب البابا الكردينال الذي مات في 7 أغسطس سنة 1270م، إلا أن عدد الموتى بهذا الوباء لا يمكن أن يكون بالحد الذي لم يعد في استطاعة الصليبين دفنهم لكثرتهم فأخذ يلقون بجثثهم في الخندق المحيط بالمعسكر.

وكما ذكر ابن الشماع (وفي أثناء إقامتهم كانت بينهم وبين المسلمين زحوف استشهد فيها من سبقت له من الله الحسنى ومات في القتال خلق كثير من عظماء النصارى ومن سائرهم)[5].

1- ابن خلدون: المصدر السابق، ج6، ص 294.

2- ابن الشماع: المصدر السابق، ص 68.

3- ابن أبي دينار: المصدر السابق، ص 136.

4- أبو بكر بن عبد الله بن أبيك الدواداري: **كنز الدرر وجامع الغرر (الدرة الزكية في الدولة التركية)** ، ج8، تحقيق أولخ هارمان، القاهرة، 1971، ص 102.

5- ابن الشماع: المصدر نفسه، ص 68.

أما لويس التاسع الذي كان عند وفاة ابنه حنا الحزين طريح الفراش يقضي هو الآخر أيامه الأخيرة فقد كان لنبأ وفاة ابنه هذا أثره الفعال في ازدياد حالته الصحية سوءا، وكان قسيسه يعلم مسبقا بذلك الاثر على نفسيته لشدة محبته وتعلقه بابنه حنا الحزين فأخفى عنه خبر موته مدة أسبوع ولم يعلمه به إلا في اليوم العاشر من أغسطس تحت إلحاح شديد من الملك بطلب زيارته ومنذ ذلك الوقت اعتكف في خيمته لا يقابل أحد سوى قسيسه وبعض رجال الدين الأخرين المكلفين بالحضور إلى خيمته لتلاوة الصلوات المعتادة، وبقي على حالته تلك إلى أن توفي في الساعة الثالثة من بعد ظهر يوم الاثنين 25 أغسطس سنة 1270م 6 محرم 669هـ[1].

وبعد وفاته بدأوا في اتخاذ الترتيبات لنقل جثمانه إلى فرنسا، ولكن جنوده رفضوا ذلك، وأصروا على بقائه بينهم ميتا كما كان وهو حي وعندما علم شعبه بوفاته حزنوا عليه حزنا شديدا إلى حد أنهم عبدوا ذكراه، ولم ينتظروا حتى يتم رسمه قديسا من قبل الكنيسة بل أطلقوا عليه هم هذا اللقب، في 11 أغسطس سنة 1297 أصدر البابا بونيفاس الثامن قرار برسمه قديسا في عداد قديسي الكنيسة الكاثوليكية، وفي نفس اليوم الي توفى فيه لويس التاسع وصل أخوه شارل بمجوعة إلى قرطاجة قادما من صقلية[2].

ثم باشر في اعداد الترتيبات لتنصيب ابن أخيه فيليب الجسور ولي العهد ملكا خلفا لأبيه، ولما كان الملك الجديد لا يزال وقتئذ يعاني من المرض فقد أصبح شارل هو المتحكم في مصير الحملة، وليرفع من الروح المعنوية للجند الذين كانوا في حالة مزرية لما كانوا يعانونه من الضيق والمرض والحزن، وخشية استغلال المسلمين للموقف الذي نجم عن موت الملك، بدأ في الاستعداد لشن هجوم كبير على المسلمين، ففي يوم الخميس 4 سبتمبر سنة 1270/ 16 محرم سنة 669هـ[3]

1–سعيد محمود عمران: **تاريخ الحروب الصليبية**، المرجع السابق ،ص 138.

2– ابن أبي الضياف: المصدر السابق، ص 206.

3- محمد المطوي العروسي: **الحروب الصليبية في المشرق والمغرب**، المرجع السابق، ص141.

بدأ ذلك الهجوم بمحاولته تسريب قطع صغيرة من أسطوله إلى البحيرة لمهاجمة المسلمين برا وبحرا فنتبه المسلمون للأمر وحاولوا شن هجوم مضاد على العدو.[1]

فاستنفر شارل القوات الصليبية وزحف بقسم منها على المسلمين في حين قاد ابنه فيليب (Philippe de Monfort) قسما ثانيا وابن أخيه كونت أرنوا القسم الثالث وشد ثلاثتهم على المسلمين، وقاد الجانب الإسلامي كما يقول ابن خلدون "القائد يحي بن صالح والذي جعل هذا الهجوم في منتصف محرم سنة 669هـ"[2]، ودارت بين الطرفين معركة حامية، ونظرا لشدة ضغط الهجوم الصليبي الذي جرى الاستعداد الكبير له مسبقا.

بدأ المسلمون في التراجع إلى معسكرهم، وبالرغم من استماتتهم في الدفاع عن ذلك المعسكر إلا أن الصليبين تمكنوا من اقتحامه بعد العشاء وبعد أن تكبد كلا الطرفين خسائر كبيرة.[3]

ولكن الصليبين غادروا معسكر المسلمين خوفا من الكرة عليهم وفي الصباح عاد المسلمون إلى معسكرهم وبادروا في حفر خندق كبير حوله حتى لا يؤخذ كالمرة السابقة ولشدة اهتمامهم بحفر ذلك الخندق شارك في ذلك العمل كبراء الدولة منهم الشيخ أبوسعيد الذي حفر فيه بنفسه، حيث يقول ابن خلدون في كتابه: (فأصبحت أبنيته مضروبة كما كانت وأمر بالخندق على المعسكر فتعاورته الأيدي واحتفر فيه الشيخ ابو سعيد بنفسه)[4].

وفي 12 صفر 669هـ / 6 أكتوبر 1270 نشبت معركة جديدة بين الطرفين إذا أغار المسلمون على المعسكر الصليبي بأعداد كبيرة انتقاما للمعركة الأنفة الذكر، ويبدو أن شارل كان مستعدا لهم فاشتبك الطرفان في معركة شبيهة بالأولى ولم يتجاوزا الا بعد أن فقد كلاهما العديد من القتلى.[5]

1-محمد المطوي العروسي: **الحروب الصليبية في المشرق والمغرب**، المرجع السابق، ص145.

2- ابن خلدون: المصدر السابق، ج6، ص 294.

3- المقريزي: السلوك، ج1، ص 365.

4- ابن خلدون: المصدر نفسه، ج6، ص 295.

5- حسين ممدوح: المرجع السابق، ص318.

المبحث الثاني: المفاوضات

بموت "لويس التاسع" ووصول أخوه "شارل دانجو" بدأت صفحة جديدة من هذه الحملة الصليبية، فقد أصبح شارل هو المتزعم للحملة خاصة أن خليفة لويس "فليب الثالث" لم يكن في المستوى الذي ينافس به عمه بإضافة إلى ما كان يعانيه من مرض الوباء أيضا، وهكذا أصبح زمام المبادرة لصاحب صقلية، العدو القديم للمستنصر الحفصي.

كان من أعمال شارل العملية التي قام بها لرفع معنويات الجيش الصليبي ففي الرابع من شهر سبتمبر أي بعد –تسعة أيام من وصوله– على محتشدات الحفصيين أجرى بها معركتين أرضية ومائية في بحيرة تونس لكن المحاولة لم تكن إلا لرفع المعنويات لا سيما الجموع الجديدة الواردة، كما قام الحفصيون بمعركة مقابلة في منتصف 669هـ، بقيادة يحي بن صالح الهنتاني وهي من أبرز المعارك، وقد تكبد فيها الجانبان خسائر فادحة وقدر ابن خلدون خسائر الغزاة بخمسمائة قتيل، وساد الهلع سكان العاصمة[1].

لكن أي من الجانبين لم يستطع أن يرجح الكفة العسكرية إلى جانبه فابتدأ التفاوض بين الفريقين وكان كل منهما يجنح لقبول التفاوض والوصول إلى اتفاق تنتهي به الحرب.

فبرغم من وصول شارل إلى قرطاجة بجموعه وجهوده التي بذلها كان الجانب الصليبي يعاني من متاعب كثيرة يصعب التغلب عليها وفشلهم في هجومين لشل مقاومة المسلمين هذا ما زادهم قناعة في استحالة تحقيق الحملة لأهدافها ومن المتاعب التي واجهت الجانب الصليبي قلة الماء الصالح للشرب، سوء التغذية، حرارة الجو، تفشي الأمراض والأوبئة[2].

1- محمد المطوي العروسي: **السلطنة الحفصية** ،المرجع السابق،ص280.
2- محمد المطوي العروسي: **الحروب الصليبية في المشرق والمغرب** ،المرجع السابق، ص146.

وقد كان من بينهم من لم يكن راضي عن هاته الحملة، حلول فصل الشتاء، موعد انغلاق البحر الذي تأتيهم الإمدادات عن طريقه الأمر الذي جعل العديد يرغبون في الرحيل عن إفريقية والرجوع إلى بلادهم أو إلى صقلية ثم إلى الديار المقدسة وعدم رضاهم عن ما يقوم به الملك وهو مواصلة حرب غير معروفة نتائج.[1]

أما الجانب الإسلامي كان له متاعبه هو الآخر، فقد كانوا يدركون خطورة هذا العدو خاصة بعد الهجومين وصعوبة الصمود أمام العدو العنيد، وقد كان يخشى المستنصر انسحاب الأعراب الهلالية من جيوشه متوجهين بماشيتهم نحو الجنوب والانصراف عن القتال وهم يمثلون قوة كبيرة في جيشه، معاناة البلاد من الضائقة الاقتصادية التي سببها القحط والمجاعة والوباء إذ يصفهم ابن الضياف بقوله "واشتد حال الوباء والقحط مع الحرب"[2].

وقد كان المستنصر يميل إلى الصلح والاستجابة لبعض مطالب الصليبين وهذا ما زاد الطين بلة على المسلمين وقتئذ و انطلاق الشائعات في ذلك الظرف الحرج، وكان من أخطر الشائعات أن المستنصر غادرا تونس إلى القيروان ليتخذها مقراً له وفي ذلك "واتهم السلطان بالتحول عن تونس إلى القيروان"[3].

واعتقد الناس بأنه لا يقدم على هذا ما لم يكن يشعر بوجود خطر محدق به، لكن هذا كله كان مجرد تهمة على حسب قول ابن خلدون أما ابن قنفد فيذكر بقوله "كان الملك عازماً على سكن قسنطينة وأراد نقل ذخائره وأهله إليها واختزن بها أربعين ألف قفيز من القمح وأمثالها من الشعير وشرع في إصلاح أسوارها"[4].

1- سعيدعبد الفتاح عاشور: **الحركة الصليبية**، صفحة مشرقة في تاريخ الجهد العربي في العصور الوسطى، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ج2، ط2، سنة 1971،ص105.

2- ابن أبي الضياف: المصدر السابق، ص 206.

3- ابن خلدون: المصدر السابق، ج6، ص 297.

4- ابن القنفد: المصدر السابق، ص 132.

لكن هاته الرواية لا يوجد لها تأييد في المصادر الأخرى لأن أهل قسنطينة ظنوا ذلك حين وصلهم أمر المستنصر بالاستكثار من العدة والسلاح وإصلاح الأسوار واختزان الحبوب لكن هذا الأمر أصدره لكافة عملاته، وفي الأخير نستنتج بأن كلا الطرفين كان له أسباب قوية تجعلهم يرغبون في الصلح وإنهاء الحرب.

رغم رغبة الطرفين في الصلح فقط لقيا معارضة شديدة ففي الجانب الإسلامي لقي المستنصر معارضة من طرف أهله وبعض كبار رجالات دولته وقطاعات من الشعب خاصة الفئة التي كانت متمسكة بمبدأ وجوب جهاد النصارى مثل المرابطين والفقهاء.

أما الجانب الصليبي فكان علىٍ رأس المعارضة الملك الجديد فيليب الجسور الذي كان يفضل المضي في تنفيذ مشروع والده وبسط السيطرة المسيحية على إفريقية ومواصلة الزحف إلى الديار المقدسة[1].

وكانت فئة الجند التي جراها الطمع في الغنائم التي رأت ضرورة اجتياح مدينة تونس ونهبها، لكن بعدما انصاع الملك فيليب لعمه شارل في عقد الصلح بسبب المبالغ المالية والهدايا التي سيحصلون عليها من المستنصر ثمناً لهذا الصلح صبت هاته الفئة من الجند لعناتها على الملك شارل واتهامه بأنه ضحى بالمصالح العامة في سبيل تحقيق مصلحته الشخصية لكن هاته المعارضة تم إسكاتها بسهولة ومال الطرفين إلى عقد الصلح[2].

تذكر المصادر الإسلامية أن الصليبين كانوا هم البادئين في طلب الصلح، يقول ابن خلدون في هذا الصدد "...واعتزموا الإقلاع وكان أمرهم راجعاً إلى العلجة فراسلت المستنصر أن يبذل لها ما خسروه مؤونة حركتهم وترجع بقومها فأسعفها السلطان"[3].

1- مصطفى وهبة: مرجع سابق،60.

2- حسين ممدوح: المرجع السابق، ص319.

3- ابن خلدون: المصدر السابق، ج6، ص 293، 294.

ويؤيد ابن الشماع ما ذهب إليه ابن خلدون بقوله: "وطلبوا الصلح في أوائل ربيع الأول فصالحهم السلطان"[1].

أما ابن الضياف فيذكر بأن المستنصر هو من طلب الصلح فيقول "فدعاهم المستنصر إلى الصلح فأجابوا"،[2] وأياً كان الأمر، فقد أرسل المستنصر وفداً من قبله لمفاوضة الصليبيين في أوائل ربيع الأول سنة 669هـ الموافق لـ أكتوبر سنة 1270م وفي 12 ربيع الأول و30 أكتوبر من العام ذاته توصل الطرفان إلى اتفاق مبدئي على شروط الصلح.

1- الوفد الإسلامي في المفاوضات:

بعدما تهيأت الظروف لعقد الصلح بين المستنصر والصليبيين، أرسل المستنصر "مشيخة الفقهاء"[3]، إلى الجانب الصليبي لإتمام هذا الصلح وتحرير المعاهدة، وأول ما ذكرته المعاهدة من هذا الوفد ابو زيان محمد بن عبد القوي أمير بني توجين، وقد حلته بالشيخ الأجل الأكرم وقد تمت هذه المعاهدة على يده إذ جاء فيها (هذا ما اتفقوا عليه وعقدوه على يد الشيخ الأجل الأكرم أبو زيان محمد عبد القوي.)**الملحق رقم 64-65**، ويفهم من هذا أنه كان رئيس الوفد الإسلامي المفاوض، وتمضي الوثيقة بعد ذكر الشروط فتذكر أسماء باقي أعضاء الوفد في ذيلها على هيئة شهود عل المعاهدة وهم:

عبد الحميد بن أبي البركات بن عمران بن أبي الدنيا الصدفي (ولي قضاء الجماعة بتونس نحوى سبع مرات وتوفي وهو على ولايته)[4].

1- ابن الشماع: المصدر السابق، ص 67.

2- ابن أبي الضياف: المصدر السابق، ص206.

3- ابن خلدون: المصدر السابق، ج6، ص 294.

4- ابن فرحون: الديباج **المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب** ، تحقيق وتعليق محمد الأحمدي، ج1، أبو النور، دار التراث، القاهرة 1974، ص249، 250.

كما ذكره ابن فرحون في كتابه "الديباج المذهب" وعلي التميمي بن إبراهيم بن عمر (أحد القضاة ولا يقل علماً ولا فهماً عن زميله، كما يفهم من الوثيقة، وأبو القاسم بن أبي بكر التجيني المعروف بابن زيتون مفتي إفريقية وقاضيها في زمن ابن زكريا وابنه المستنصر من أشهر تلامذة الإمام المازري وهو الذي تولى كتابه وثيقة الصلح.

لم يقتصر دور هؤلاء على المفاوضة وإنما على الشهادة أيضاً (وهي صحته وثبوته) وشهادة هؤلاء الذين كانوا نخبة فقهاء إفريقية كانت كافية لإقناع مسلمي إفريقية بصحة الصلح وعدالة شروطه وبالتالي توفير الدعم الشرعي للمستنصر في عقده[1].

المبحث الثالث: معاهدة هذا الصلح

1-اتفاقية الصلح:

كان أهم ما اشتملت عليه اتفاقية الصلح هدنة بين الطرفين مدتها خمسة عشر عاماً ابتداء من أول نوفمبر 1270 ربيع الأول 669هـ يدفع اثنائها المستنصر الحفصي غرامة مالية قدرها مائتان وعشرة آلاف أوقية ذهباً تدفع أقساطا حددها البند الثاني عشر من الاتفاقية وأن يؤدي المستنصر إلى "شارل دانجو" ملك صقلية الغرامة التي كان يدفعها للإمبراطور فريدريك الثاني بما في ذلك الخمس سنوات الماضية.

ومما جاء في تلك اتفاقية أيضاً اعتبار رهبان النصارى وقساوستهم الموجودين في البلاد سكاناً فيها يعطيهم السلطان الحفصي حاضراً ومستقبلاً.

تلك هي أهم الشروط التي تضمنها اتفاق الصلح المعقود بين المستنصر الحفصي والملوك والزعماء الذين شاركوا في الحملة الصليبية الثامنة على تونس وهي شروط نال منها "شارل دانجو" نصيب الأسد إذ يعتبر هو المستفيد الأول من تلك الاتفاقية[2].

1- سعيد عبد الفتاح عاشور: المرجع السابق،ص207

2- محمد العروسي المطوي: **السلطنة الحفصية**، المرجع السابق، ص 210.

كما تظهر تلك الشروط المستنصر الحفصي في مقام المنهزم إذ قبل دفع الغرامات الحربية والإتاوات التي كان ممتنعاً من دفعها في حالة اختياره، وحُمِل الرعايا دفع تلك الغرامة، "إن الرعايا دفعوا تلك الغرامة عن طواعية وقدرت بعشرة أجمال من المال"[1].

ثم أمر المستنصر بتخريب قرطاجة واجتثاث بنيانها من قواعده حتى أصبحت أبنيتها طامسه نتيجة من اعتصام الغزاة بتلك الأبنية واحتمائهم بأسوارها وذلك مما يؤسف له فقدان معالم قرطاجة التي كانت قائمة الذات في عهد ذلك الغزو.

وقد رأينا أن نزولهم في تونس لم يكن على درجة من القوة التي لا يستطيع المستنصر هزمها لو أنه كان على أهبة تامة، وقوة داخلية متماسكة.

وهكذا يمكن القول بأنه ليست العبرة بالتحلي بلقب الخلافة وإمارة المؤمنين والسعي لاكتساب الفخر الزائل والألقاب الجوفاء بل العبرة أن تكون للدولة حرمتها وهيبتها مما يجعلها في مناعة حقيقية تبعدها عن مظاهر التدلي والخضوع أمام المعتدين وهو الشيء الذي فقده المستنصر عندما حصر همه في التوسع غير المبني على الأساس الثابت، وفي الاكتفاء «ببيعات» هزيلة أو مشكوك فيها ترد عليه من الأقطار البعيدة دون أن يكون لها دور في البناء السليم للدولة الأصلية للأمة[2].

وتوجد النسخة الأصلية لهذا الاتفاق بوثائق خارجية بفرنسا ومنها صورة شمسية بمتحف سان لويز بقرطاج ونشرها بقريو سنة 1912 بتونس ضمن رسالة تتعلق بحملة لويس التاسع على تونس[3].

1- ابن خلدون: المصدر السابق، ص 276.

2- محمد العروسي: **السلطنة الحفصية**، المرجع السابق، ص 211.

3- حسين ممدوح: المرجع السابق، ص 331.

2-انسحاب الصليبيين:

"عقب توقيع معاهدة الصلح مباشرة بدأ الصليبيون في الانسحاب تاركين بعض أثقالهم، خلفهم، منها بعض المنجنيقات التي غنمها المسلمون"[1].

حدد ابن القنفد موعد انسحابهم بيوم 24 ربيع الأول سنة 669هـ"[2]،ذلك أن معاهدة الصلح قد وقعت بعد ذلك التاريخ بأحد عشر يوماً ولا يمكن أن يكون هناك انسحاب قبل توقيع المعاهدة والذي كان يوم 5 ربيع الآخر سنة 669هـ، وأما ابن الشماع، وابن أبي دينار، والوزير السراج، فبالرغم من أنهم لم يحددوا تاريخ الانسحاب إلا أنهم ذكروا أن مدة إقامة الصليبيين في تونس كانت أربعة أشهر وعشرة أيام.

ولما كان ما ذكرنا أن المدة بين نزول الصليبين وتوقيع المعاهدة وأن الانسحاب بدأ إثر ذلك وربما في اليوم التالي مباشرة، فإن هذه الروايات تكون أقرب الروايات الإسلامية إلى الصحة وحرصاً من المستنصر على عدم حدوث ما يعكر صفو الأمن بينه وبين الصليبين في تلك المرحلة، أرسل كتائب من قواته من النصارى والمسلمين لحمايتهم أثناء الانسحاب

وكان قد جرى الاتفاق بين الصليبين على الاتجاه إلى مينائي أطرابنش (Trapane) وبلرمة (بالرمو) بصقلية وكان بعضهم قد اعتزم الرحيل منها إلى الديار المقدسة من ضمنهم كونت بواتيي.

كما اعتزم بعض آخر على رأسهم الملك شارل على الرحيل إلى اليونان لحرب إمبراطور القسطنطينية[3].

1- ابن خلدون: المصدر السابق، ج6، ص 294.

2- ابن القنفد: المصدر السابق، ص 132.

3- سعيد عبد الفتاح عاشور: المرجع السابق،ص109.

وأما الملك فيليب فقد كان عازما على العودة إلى بلاده، في طريقهم إلى صقلية هبت عليهم عاصفة هوجاء حطمت كثيراً من سفنهم وأهلكت العديد منهم وكانت شديدة طوال ليلة يوم الأحد وكامل يوم الاثنين والليلة التالية إلى حد أن أبدوا حيرتهم ودهشتهم عن هذه العاصفة[1].

التي قالوا بأنهم لم يروا مثلها أبداً في حياتهم لقد تحطمت الصواري وغاصت السفن الكبيرة في البحر كما تغوص الصخرة، إذ هلك العديد من الرجال والنساء من مختلف الأعمار قدرهم من شهد الكارثة بحوالي أربعة آلاف نفس ومات بعد ذلك ما يزيد عن الألف من الذين نجوا من أثر الرعب والهلع[2].

ولم يكن وصولهم إلى صقلية نهاية المتاعب بل مات فيها الكثير من مرضاهم من بينهم ملك نفارة، وتبعته بعد ذلك بفترة وجيزة زوجته التي ماتت حزنا على مولودها الذي ولدته ميتا قبل موعده، نتيجة لفقدانها زوجها، كما سقطت الملكة إيزابيلا زوجة الملك فيليب عن فرس وكانت هي الأخرى في أشهر الحمل الأخيرة، فكان ذلك سببا في إجهاضها ولم تعش بعد ذلك طويلا إذ ماتت هي الأخرى 28 يناير سنة 1271م ثم تبعها ألفونس كونت بواتييه وعم الملك فيليب، وكان لهذه الحوادث أثرها القوي على نفسية هذا الملك حتى بات رجالاته يخشون عليه من الموت هو الآخر كمدد لفقده هؤلاء، وأخيراً رحل بمن تبقى من جيشه في موكب يتقدمه تابوت أبيه وتوابيت باقي الذين ماتوا من أفراد أسرته فكان ذلك نهاية المطاف بالنسبة للحملة الصليبية الثامنة[3].

1- محمد المطوي العروسي: **الحروب الصليبية في المشرق والمغرب**، المرجع السابق، ص 150.

2- حسين ممدوح: المرجع السابق، ص 324.

3- محمد المطوي العروسي: **السلطنة الحفصية**، ص 213.

3-أسس الصلح: إن الشروط الواردة في الوثيقة تدور حول ثلاثة مواضيع رئيسية هي:

أ) الاقتصادية، ب) السياسية، ج) الدينية:

أ) الناحية الاقتصادية: هذا الجانب تعرض له الوثيقة وخصته بقسم كبير من البنود لأهميته بالنسبة للمتعاقدين والمتمثل في تنظيم العلاقات التجارية بين الطرفين، وتأمين الطرق التجاري البحرية، والغرامة الحربية والإتاوة لملك صقلية، أما بالنسبة لتنظيم العلاقات التجارية.

فقد تعرضت شروط المعاهدة لهذا الأمر بتفصيل كبير يؤكد على ضخامة حجم التبادل التجاري بين إفريقية والدول المسيحية، وهي بذلك كفلت الحرية التجارية بين الطرفين (إذْ لا يعترض أحد منهم في نفس ولا مال كثيراً أو قليلاً)، وإذا تعرض أي من التجار لأي عدوان في نفسه أو ماله من قبل أي أحد من رعايا الملوك النصارى وزعمائهم المذكورين في المعاهدة، فعلى هؤلاء الملوك تعويض المسلمين عن هذا العدوان ورد ما أخذ منهم.

وكذلك كسر أي مركب للتجار المسلمين أو مركب للنصارى فيه أحد من المسلمين أو أموال تخص المسلمين في أحد الموانئ التابعة لهؤلاء الملوك والزعماء فإن عليهم حفظ ما يتم إنقاذه من هذه الأموال وردها للمسلمين[1].

ويرتبط هذا البند بظاهرة عامة كانت تتعرض لها الملاحة البحرية في العصور الوسطى وهي كثرة جنوح السفن على سواحل البحر الأبيض المتوسط بسبب تأخر وسائل الملاحة والجهل بمسالك البحار، وأيضا إذا جنح مركب وألقى به الموج ووصلت بضائعه إلى الشاطئ تصبح غنيمة لصاحب الأرض.[2]

1- محمد المطوي العروسي: **السلطنة الحفصية**، المرجع السابق،ص214.

2-حسين ممدوح: المرجع السابق، ص 335.

لذلك حرص الجانب الإسلامي في المعاهدة على التمسك بهذا الشرط للمحافظة على حقوقه وإبطال هذا التقليد.

وفي المقابل تعهد المستنصر بتوفير الحماية والأمن للتجار النصارى من رعايا الملوك والزعماء وسواهم الذين يترددون على الدولة الحفصية في أنفسهم وأموالهم، وهذه الحماية المتبادلة التي منحتها المعاهدة للتجار من رعايا الطرفين هي من الشروط الشهيرة التي وردت في معظم المعاهدات التي عقدت بين المسلمين والنصارى.

لكن ما يلفت الانتباه هو استفادة التجار النصارى من نصوص المعاهدة أعم وأشمل من استفادة التجار المسلمين[1].

وقد منح المستنصر امتيازات لجميع النصارى رعايا الملوك والزعماء الواردين ففي الصلح وغيرهم من أصدقائهم في حين لم تقدم المقابل للمستنصر فالمسلمون الذين تعرضت لهم المعاهدة هم فقط رعايا المستنصر.

رغم ظاهرية مساواة هذه الشروط بين التجار المسلمين والنصارى إلا أنها في باطنها حماية للنصارى فقط وفيها غبن للمسلمين، وقد انحصرت استفادة الدولة الحفصية في غالبيتها في عائدات الجمارك التي كانت تحصل عليها من التجار النصارى، وإن كانت مبالغ لا يستهان بها إلا أنها تبقى ضئيلة بالنسبة لما كان يجنيه تجار النصارى من أرباح التي كانوا يكسبونها من تجارتهم مع إفريقية.

وكما نصت شروط المعاهدة على أن يلتزم المستنصر للتجار النصارى المقيمين في دولته دون استثناء بالسماح لهم بمعاودة مزاولة أعمالهم التجارية من جديد كما كانوا يمارسونها قبل العدوان وكأن ذلك العدوان لم يكن وليس ذلك فقط وإنما ألزم نفسه بأن يرد لهم كل شيء قد يكون في المقابل المعاهدة لم تشرط مثل هذا الشرط للتجار المسلمين[2].

1- ارنست باركر: المرجع السابق، ص135.
2- محمد المطوي العروسي :**السلطنة الحفصية**، المرجع السابق،ص214.

وهو غبن آخر للمسلمين، وبهذا فإن حقوق النصارى محفوظة ومضمون من الدولة، والامتيازات الأجنبية تعود أصولها إلى هذه المعاهدة.[1]

وكل ما التزم به هؤلاء التجار هو عدم تدخلهم في الشؤون الداخلية للدولة الحفصية وهذا يدل على خشية المستنصر من نفوذ هؤلاء التجار في دولته لأن نكبة المستنصر لوزيره الليلياني الذي كانت له علاقة طيبة مع هؤلاء وليس من المستبعد أن تكون لهم يد في ذلك من أجل إضعاف وتمزيق الدولة الحفصية.

ولضمان حرية التجارة نبهت المعاهدة على وجوب محاربة القرصنة فاشترطت على ملوك وزعماء الصليبيين أن يكفوا عادية كل من يخرج من بلادهم، ولم تشترط ذلك المسلمين والمستنصر ليكف عادية رعاياه على بلاد هؤلاء، وهذا ما يدل على أن مسلمي إفريقية لم يمارسوا أعمال القرصنة[2].

سرعان ما أقرت المعاهدة بين الطرفين حتى نسي كلاهما العدوان، فكانت مملكة أرغونا هي السباقة في ذلك لتوثيق العلاقات التجارية بينهما وبين إفريقية فعقدت معها في سنة 1271م معاهدة تجارية، ثم تبعتها بعد ذلك في هذا الأمر أكبر المدن الإيطالية، وفي نفس ذلك العام عقد معها كل من بيزا والبندقية اتفاقيات تجارية مماثلة، وفي العام التالي أي 1272 تمكنت جنوة من الفوز هي الأخرى باتفاقية مماثلة[3].

الغرامة الحربية التي نصت عليها المعاهدة لعلاقتها الوثيقة بالناحية الاقتصادية فقد بينت المعاهدة مقدارها بوضوح الأمر الذي كان موضع خلاف بين المؤرخين المسلمين فابن خلدون لم يحدد مقدارها وإنما قال "إن السلطان قد أغرم الرعايا مما أعطى العدو من المال فأعطوه طواعية يقال إنها عشرة أحمال من المال"[4].

1- حسين ممدوح: المرجع السابق، ص 336.

2-محمد المطوي العروسي: **الحروب الصليبية في المشرق والمغرب** ،المرجع السابق، ص160.

3- سعيد عبد الفتاح عاشور: **الحركة الصليبية**، المرجع السابق، ص155.

4- ابن خلدون: المصدر السابق، ص294.

ومعنى ذلك أن هذه الأحمال العشرة التي لا نعرف مقدارها بالضبط كانت جزءاً من الغرامة التي التزم بها المستنصر للصليبيين.

أما ابن الشماع فيقول عن هذه الغرامة كانت "ألف قنطار ومائة قنطار وعشرة قناطير من الفضة الخالصة"[1]، وكان من الممكن أن يتسبب هذا التضارب في الروايات في اختفاء الحقيقة لولا أن المعاهدة بينتها بجلاء حيث نصت على أن مقدار تلك الغرامة كان مائتا ألف أوقية ذهباً وعشرة آلاف أوقية، كل أوقية منها يقبض عنها من الفضة ما مقداره خمسون درهما من دراهمهم في الوزن والطيب.

أي أنها كانت عشرة ملايين وخمسمائة ألف درهم وليس من اليسير معرفة أي هذه الروايات أقرب إلى الصحة لصعوبة معرفة ما يزنه القنطار من الدراهم مع ملاحظة اختلاف وزن القنطار نفسه من بلاد إسلامي لآخر، فالقنطار الشامي مثلا يختلف عن القنطار المصري وهكذا[2].

ويروي ابن الشماع "عن هذه الغرامة قد قسطت على مدى خمسة عشر عاماً"[3]، فإن المعاهدة قد نصت على أن يدفع نصف هذا المبلغ معجلاً أي قبل رحيل الصليبيين والنصف الثاني مقسط بين عامين شمسيين من تاريخه، نصف المقسط يقبض آخر كل عام من عامين، ويتصل بهذا الموضوع أمر آخر هو الإتاوة.

فقد كرست المعاهدة الإتاوة التي كانت تدفعها الدولة الحفصية إلى حكومة صقلية وجعلتها حقا واجب الأداء لملك صقلية أيا كان هذا الملك، وغيرت مفهومها الأساسي ،من كونها منحة أشبه ما تكون بتقاسم العائدات وتبادل المنافع لا تحمل في طياتها أي معنى للهيمنة أو حق المطالبة بها إن لم تدفعها تلك الدولة إلى إتاوة لا خيار لها في دفعها[4].

1- ابن الشماع: المصدر السابق ،ص 68.

2- حسين ممدوح :المرجع السابق،ص341.

3- ابن الشماع: المصدر نفسه ، ص 67.

4- محمد المطوي العروسي: **السلطنة الحفصية**، المرجع السابق، ص214.

ومما يستلفت النظر أن المعاهدة قد أغفلت ذكر مقدار الإتاوة بخلاف ما جرى بالنسبة للغرامة الحربية التي نصت عليها بوضوح، فكل ما ورد فيها بالنسبة للإتاوة هو أن يؤدي إلى الملك شارل عن الخمسة أعوام الماضية المتصل آخرها بهذا التاريخ ما كان يؤدي للأنبرورمثنيا أي أن يدفع له عن خمسة أعوام ماضية نفس المبلغ الذي كان يدفع لملوك الهوهنشتاوفن[1].

ولما كان شارل قد اعتلى عرش صقلية في فبراير سنة 1266م وأن المعاهدة عقدت في نوفمبر سنة 1270م، فإن معنى ذلك أن دفع تلك الإتاوة قد جرى احتسابه بنفس القيمة السابقة منذ تولي شارل لعرش صقلية تقريبا مقسطا بذلك مطالباته التي كان يطالب المستنصر بها بدفع هذه الإتاوة عن جميع السنوات التي لم تدفع فيها منذ عهد الإمبراطور فريدريك الثاني[2].

ولحين اعتلائه هو العرش لأنها خلال هذه المدة لم تكن تدفع بانتظام كما سبق أن ذكرنا الأمر الذي تؤكده تلك الوثيقة التي عثر عليها في قنصلية نابلي والتي تبين أن هذه الإتاوة لم تدفع عن مدة ثلاث سنوات قبل اعتلاء شارل عرش صقلية، ومن المرجح أن تكون هنالك سنوات أخرى لم تدفع فيها للخزينة الصقلية.

ولكن في مقابل ذلك نصت المعاهدة على أن تضاعف قيمة تلك الإتاوة منذ تاريخ عقدها وإذ كانت المعاهدة قد أغفلت ذكر قيمة هذه الإتاوة ويتضح أن قيمة هذه الإتاوة التي كانت تؤديها الدولة الحفصية لملوك الهوهنشتاوفن كانت 12 أوقية ذهباً[3].

بالرجوع إلى نصوص المعاهدة التي حددت قيمة أوقية الذهب بخمسين درهماً فضياً يتضح أنها كانت تساوي ستمائة درهم وقد قدرت في عهد أبي زكريا الأول الحفصي والد

1-**الهوهنشتاوفن**،اسرة من الأمراء في ألمانيا خلال العصور الوسطى اعتلت العرش الإمبراطوري 1138-1254م،أشرف صالح ،**الحقبة الهوهنشتاوفنية في الإمبراطورية الرومانية المقدسة**،ص02.

2-حسين ممدوح: المرجع السابق، ص 342.

3-محمد المطوي العروسي: **الحروب الصليبية في المشرق والمغرب** ،المرجع السابق، ص166.

المستنصر تتراوح بين (32) و(34.333) قطعة ذهبية وهو ما يعادل (326.136) فرنكا فرنسياً بعملة عصرنا الحاضر، وعندما تضاعفت أصبحت (1200) درهماً[1].

وإذا كانت نصوص المعاهدة التي تعرضت لأمور التجارة كان الهدف منها تنشيط الحركة التجارية بين الدولة الحفصية والدول الأوروبية مما يعود على كلا الطرفين بالنفع والفائدة، فإن كلا الغرامة الحربية والإتاوة كانت غنيمة وفائدة خالصة للقوى الصليبية المشاركة في الحملة على حساب مصلحة الدولة الحفصية[2].

إذ أن ذلك المبلغ الضخم الذي دفعه المستنصر للصليبيين استنزف الخزينة الحفصية، ويقول ابن الشماع "وكان نزولهم –الصليبيين– على تونس سببا في إتلاف الأموال التي تركها المولى أبو زكريا رحمه الله وغيرها مما جمعه السلطان بعد وفاته"،[3] وقد عمل المستنصر بعد رحيل الصليبيين على تعويض خزينته عن هذا المبلغ الضخم فطالب شعبه بأن يدفع له تلك الأموال فدفع له منها عشرة أحمال بالرغم مما كان يعانيه هذا الشعب من الضائقة الاقتصادية نتيجة للقحط والوباء اللذين أضلاّ إفريقية في تلك الآونة فإن الشعب في تلك المحنة كان مغلوباً على أمره استكره على دفعها[4].

وبذلك يكون المستنصر قد امتص دم شعبه وقدمه غنيمة باردة للصليبيين وكان الأجدر به لو أنه كان يتمتع بالروح الإسلامية الحقة أن يقاوم الغزاة حتى يقضى عليهم أو يضطرهم للرحيل أو يأخذهم أسرى كما حدث لهم في مصر ليدفعوا له هذا المبلغ أو أكثر منه فدية و جزاء لهم على عدوانهم خاصة وأنهم كانوا يعانون من المتاعب أكثر مما كان يعاني بدلاً من أن يؤدي لهم هذه الأموال ثمناً للسلام[5]، فقد قال تعالى في محكم كتابه «قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ وَيُخۡزِهِمۡ وَيَنصُرۡكُمۡ عَلَيۡهِمۡ وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ »[6].

1-أرنست باركر: المرجع السابق، ص156.
2- محمد المطوي العروسي: **السلطنة الحفصية** ،المرجع السابق،ص217.
3– ابن الشماع: المصدر السابق، ص 68.
4- سعيد عبد الفتاح عاشور: **الحركة الصليبية**، المرجع السابق، ص177.
5– محمد المطوي العروسي: **الحروب الصليبية في المشرق والمغرب**، المرجع السابق ،ص168.
6– سورة التوبة، آية (14).

وقال أيضا جل من قائل: «فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرۡبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثۡخَنتُمُوهُمۡ فَشُدُّواْ ٱلۡوَثَاقَ فَإِمَّا مَنَّۢا بَعۡدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلۡحَرۡبُ أَوۡزَارَهَاۚ ذَٰلِكَ وَلَوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنۡهُمۡ وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَاْ بَعۡضَكُم بِبَعۡضٖۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ»[1]،

وبحصول الصليبيين على هذا المبلغ عوضوا خسائرهم المادية التي أنفقوها في الإعداد لتلك الحملة وربما فاقتها حيث أن ذلك المبلغ كان أقل من النفقات خاصة وأن الملك شارل أخذ ثلثه، ذلك لو أنهم لم يعوضوا خسارتهم لما قبلوا بالصلح خاصة وأن المستنصر كان على استعداد لدفع أي مبلغ يطلبونه[2].

وبذلك تحولت الحملة ذات الأهداف الكبيرة إلى تحقيق المكسب المادي فأصبحت تبعاً لذلك لا تختلف كثيرا عن غارات القراصنة، ولم يعد هنالك فارق كبير بينهما وبين الحملة التي شنتها البيازنة والجنويون على المهدية سنة 471هـ/1087م أي قبل ذلك بحوالي قرنين كما أنها أصبحت نموذجا احتذتها الحملات الأخرى التي شنها الصليبيون على إفريقية في القرن الثامن الهجري (الرابع عشر للميلاد).[3]

ب/ الناحية السياسية:

تعرضت المعاهدة لعدة أمور سياسية هامة أولها إرساء أسس سياسة حسن الجوار بين الدولة الحفصية والدول الأوروبية المشاركة في الحملة وأول هذه الأسس كان إلزام ملوك هذه الدول بكف عدوانهم على إفريقية طوال مدة المعاهدة بطبيعة الحال، فلا يباشرون هذا العدوان بأنفسهم أو يمدون يد العون والمساعدة بمن يروم ذلك أو يشجعونه عليه فعليهم أن لا ينجدوا لمن يتحرك لضرر أو لتعد على شيء من بلاده.

1- سورة محمد، آية (4).

2-سعيد محمود عمران: المرجع السابق، ص 217.

3- حسين ممدح: المرجع السابق، ص 345.

وإغفال المعاهدة لإلزام المستنصر بمثل هذا الشرط بالمقابل يؤدي بنا إلى حقيقة هامة هي أن العدوان كان يشن من قبل الجانب الصليبي على إفريقية وهذا ما تؤكده العديد من الروايات التي وردت في المصادر التاريخية حيث كان الصليبيون يعتدون عليها كلما وجدوا غرة، وأن الصليبيين لم يكونوا يخشون من غارات المسلمين على بلادهم، هذا علاوة على أن سياسة المستنصر التي كانت قائمة على مبدأ عدم الاعتداء على النصارى كانت معروفة لديهم[1].

وثاني هذه الأسس هو عدم إيواء أي من ملوك الصليبيين المذكورين في المعاهدة أيا من أعداء المستنصر في بلادهم وفي مقابل ذلك تعهد المستنصر لا بعدم إيواء أعداء هؤلاء في بلاده منذ تاريخ توقيع هذه المعاهدة، فحسب وإنما أيضا بإخراج الذين كانوا موجودين بالفعل في بلاده قبل توقيع المعاهدة ومنعهم من العودة إليها مرة أخرى.

وواضح أن المعنى بهذا الشرط أكثر من غيره هو الملك شارل ذلك أن الدولة الحفصية كانت الملاذ لمناوييه في صقلية من أنصار الهوهنشتاوفن، ويتخذون منها قاعدة لممارسة نشاطاتهم المعادية له وإثارة المتاعب في وجهه في جزيرة صقلية.

فإنه يفهم منها كذلك أنها غلت يد مسلمي إفريقية على مديد المساعدة لبقايا المسلمين الذين كانوا على ما يبدوا قد انتهزوا فرصة نشوب المشاكل التي أودت بحياة الملك[2].

ما نفرد وأدت إلى اعتلاء شارل عرش الجزيرة فأشعلوا الثورة التي استمرت إلى ما بعد اعتلائه ذلك العرش مما جعله يحاول استرضاءهم والقضاء على تمردهم بإصدار أمره إلى نائبه في الجزيرة لإسناد أعلى المناصب الإدارية في حكومتها للمسلمين.

فقضت هذه المعاهدة على آخر أمل لهؤلاء المسلمين في الخلاص، ذلك أن مسلمي إفريقية كانوا هم السند الطبيعي لهؤلاء والمصدر الأكثر احتمالا للمساعدة التي يتلقونها، مما كان له أثر فعال في إطفاء آخر جذوره لثورة المسلمين في الجزيرة، ومنذ ذلك الوقت لم يعد

1- محمد المطوي العروسي: **السلطنة الحفصية**، المرجع السابق،ص220.
2- حسين ممدوح: المرجع السابق، ص346.

يسمع عن ثورة إسلامية خالصة فيها، وبذلك اطمأن شارل على عرشه فيها وتفرغ لمشاريعه في شرق البحر الأبيض المتوسط المتعلقة بأملاك الدولة البيزنطية والإمارات الصليبية في بلاد الشام، وقد كشفت المعاهدة عن موضوع هام وهو إلزام إمبراطور القسطنطينية بما جاء فيها وأدخلته في الصلح، إذ نصت على ما يلي: (والأنبرور الأجل بادوين صاحب قسطنطينية... داخلون في ذلك كله ولازم لهم ذلك)[1]

وبالرجوع إلى سياسة الملك لويس التاسع الذي كان يسعى أثناء الدعوة للحملة الصليبية الجديدة لمجابهة المسلمين بأوروبا المسيحية موحدة يسودها السلام ليكون بذلك أقدر على تحقيق أهدافه، ولم يكن ليغيب عن ذهنه بطبيعة الحال الدور الذي كان من الممكن أن تقوم به القسطنطينية في مشاريعه الصليبية في الشرق.

وفي تلك الأثناء اتصل به إمبراطور القسطنطينية ميخائيل الثامن باليولوج، والذي كان يخشى على دولته من مشاريع شارل صاحب أنجو من ناحية، وربما كانت قد وصلته أنباء الاستعدادات للحملة الجديدة فخشي من لويس التاسع نفسه أن يعمل على إعادة الحكم اللاتيني للقسطنطينية أثناء وجوده في المشرق ثانية من ناحية أخرى، لذلك أرسل سفارة إلى بلاط الملك الفرنسي مصحوبة بالهدايا النفيسة لكسب وده[2].

ولكن لويس التاسع لم يكن بذلك السياسي القصير النظر الذي يجعل سياسته تسير في اتجاه واحد بل كان من ذلك الطراز من السياسيين الذين يتقنون اللعبة السياسية ويحاولون تسخير كافة الظروف والوسائل لتحقيق أهدافهم.

فبالإضافة إلى تقاربه مع ميخائيل الثامن باليولوج كان يتعاطف مع خصمه الإمبراطور المخلوع فيليب دو كوتينيه اللاتيني ويتبنى قضيته وربما كان يمنيه بإعادته إلى العرش ولعل ذلك هو السبب الذي جعل ألفونس ابن هذا الإمبراطور يشرك في هذه الحملة

1- محمد المطوي العروسي: **السلطنة الحفصية**، المرجع السابق،ص225.
2-ارنست باكر: المرجع السابق، ص157.

التي كان المشرق هو نهاية المطاف بالنسبة لها ولذلك فإن لويس التاسع بإعادته هذا الإمبراطور إلى عرش القسطنطينية يجعله خاضعا لإرادته[1].

وبهذا يتضح أن الملك الفرنسي كان يعمل على تسخير كلا الخصمين لخدمة أهدافه مما يجعل هذا الشرط قد يعني أيا منهما نظرا لعلاقتهما القوية بالملك الفرنسي، وأما الإمبراطور المخلوع.

فبالرغم من أنه لم يكن يملك القوات والإمكانيات ما يجعله يشكل خطر على الدولة الحفصية، إلا أن سياسته كانت تتوافق مع سياسة شارل ملك الصقيليتين الجار الأقرب والأشد خطراً من سواه على إفريقية[2].

ولما كان ابنه قد شارك في الحملة، فإن إلزام المعاهدة له بالتقيد بالشروط الواردة، فيها كان من قبيل الاحتياط بالنسبة للدولة الحفصية.

وأما بالنسبة له فربما كان ذكره في تلك المعاهدة يعود بالنفع على قضيته إذ أن ذلك قد يكسبه مزيدا من تعاطف الحركة الصليبية معه، حيث إن ذكره من ضمن الملوك والزعماء المشاركين في الحملة وفي معاهدة الصلح يوفر له حضوراً في أذهان القائمين على الحركة الصليبية فيعملون على مده بما يحتاجه من دعم لاستعادة عرشه وكما ألزمت المعاهدة الإمبراطور بالدوين بما جاء فيها[3].

ألزمت أيضا زعيما آخر غيره بالتقيد بذلك هو الأمير إدوارد ولي عهد إنجلترا، الذي ذكرت أنه لم يكن قد وصل إلى تونس وقتئذ بعد إذ جاء فيها (ومن غيرهم من كل من تحرك بحركتهم أو وصل في صرختهم أو معونتهم أو يصل بعدهم مثل الملك إدوارد أو غيره كائن من كان).

وأول ما يلاحظ على هذا النص أن المعاهدة قد جعلت إدوارد ملكاً لإنجلترا والحقيقة أنه كان لا يزال آنذاك ولياً لعهد أبيه، ثم أنها ضربت به مثلاً على من سيصل إلى إفريقية

1- حسين ممدوح: المرجع السابق، ص 348.
2- محمد المطوي العروسي: **الحروب الصليبية في المشرق والمغرب**، المرجع السابق، ص178.
3- محمد المطوي العروسي: **السلطنة الحفصية**، المرجع السابق،221.

من المشاركين في الحملة بعد رحيل الصليبيين عنها، وهذا الأمير كان موجوداً في تونس بالفعل عند أبوابها حيث وصلها في 10 نوفمبر 1270م في حين أن المعاهدة أبرمت نهائيا في 5 ربيع الثاني 669هـ/ 21 نوفمبر سنة 1270م[1].

الأمر الذي يجعلنا نعتقد أن الشروط الواردة فيها كان قد اتفق عليها قبل 10 نوفمبر وربما أن المعاهدة قد كتبت أيضا قبل هذا التاريخ، ذلك أن يوم 5 ربيع الثاني سنة 669هـ/ 21 نوفمبر سنة 1270م لم يكن تاريخ كتابة المعاهدة وإنما هو يوم حلف المستنصر على التقيد بما جاء فيها كما يظهر بوضوح فيها، ولهذا يمكن القول بأن وصول إدوارد الذي كان على رأس قوة صغيرة نسبيا لم يقدم أو يؤخر وظلت المعاهدة دون تعديل.

كما شرطت المعاهدة أيضا على جميع من سواه ممن قد يكون في مثل وضعه ويصل بعد إبرام الصلح أن يتقيد ببنوده، وفصلت المعاهدة بعد ذلك أيضا الأمور المتعلقة برحيل الصليبيين، شارطتا أن لا يبقى أحد منهم في إفريقية، وإذا اقتضت الضرورة تخلف بعضهم أو بقاء بعض أثقالهم فقد ألزمتهم بالبقاء في موضوع معين لهم من جهة أمير المؤمنين ويكونوا محفوظين منه إلى حين رجوع المراكب إليهم[2].

ومن غير الممكن بطبيعة الحال أن يكون ذلك الموضوع هو قرطاجة حتى لا يكون في الأمر خدعة وقد التزم المستنصر بحماية هؤلاء في أرواحهم وأموالهم لحين رحيلهم، ولكن ما جرى هو أن الصليبيين رحلوا بأجمعهم لم يتخلف منهم أحد ولم يتركوا من أثقالهم سوى تسعين منجنيقا غنمها المسلمون، وموضوع آخر هو تبادل الأسرى بين الطرفين الذي نصت عليه المعاهدة[3].

1- حسين ممدوح: المرجع السابق، ص349.
2- سعيد محمود عمران: **تاريخ الحروب الصليبية**، المرجع السابق، ص346.
1- محمد المطوي العروسي: **السلطنة الحفصية**، ص 222.

ج/ الناحية الدينية:

كانت الناحية الدينية هي الموضوع الرئيسي الثالث الذي تعرضت لها المعاهدة وجاء ذلك بشرط مفرد قليل الكلمات إذا ما قورن بالشروط التي عالجت الموضوعين الآخرين ويبدوا للوهلة الأولى من هذا الشرط وكأن الصليبيين يوصون المستنصر خيراً بالنصارى الذين في بلاده، ويبحثون على رعايتهم والسماح لهم بأداء شعائرهم الدينية وتبدوا التوصية أمراً طبيعيا في ذلك العصر إذ تجد لها أمثلة عديدة في مراسلات ملوك النصارى إلى حكام المسلمين في العصور الوسطى.

ولكن هذا النص في حقيقته يهدف إلى أمور أهم من مجرد التوصية وأعمق بكثير تبدو واضحة بجلاء عند إمعان النظر فيه لقد نص ذلك على أن يكون رهبان النصارى أو قساوستهم سكاناً في بلاد أمير المؤمنين، وهو يعطيهم موضوعاً يعمرون فيه ديار وبيوت الصلاة، ومواضع لدفن موتاهم والرهبان والقساوسة المذكورين يعضون ويصلون جهراُ في كنائسهم يخدمون الله بما يلزم شريعتهم وبما هم معتادين في بلدانهم.

فمهمة القساوسة في إفريقية كانت هي الرعاية الروحية للنصارى المقيمين فيها والمتمثلة في إقامة الصلوات في الكنائس وتعميد المواليد وإتمام عقود الأنكحة وتجهيز الموتى والصلاة عليهم والإشراف على دفنهم حسب ما تنص عليه الشريعة المسيحية وما إلى ذلك، ولم يكتفوا بهذه المهام فقط بل قاموا بعمل خطير هو الدعوة المسيحية بين المسلمين[1].

ذلك أن الرهبان في تلك الآونة وبصفة خاصة رهبان منظمتي الفرنسيسكان والدومنيكان، خرجوا عن تقاليد الرهبنة المألوفة إلى ميدان آخر هو العمل على تنصير غير المسيحيين وقدوتهم في ذلك مؤسسا هاتين المنظمتين[2].

فالقديس فرانسيس الأسوزي مؤسس الفرنسيسكان كرس حياته لهذا العمل وقد وجد في الحملة الصليبية الخامسة التي قام بها حنادي بيريين على مصر 618هـ/1218م فرصة

2-حسين ممدوح: المرجع السابق، ص 350.

1-أرنست باكر: المرجع السابق، ص160.

ذهبية له لممارسة نشاطه التنصير بين المسلمين فرافق تلك الحملة وأصر على مقابلة السلطان الكامل الأيوبي ودعوته لاعتناق المسيحية ومع أنه فشل في مهمته مع هذا السلطان.

إلا أن حل تنصير غير المسيحيين ظل مسيطراً عليه طوال حياته وعلى أتباعه من بعده، وأما القديس دومينيك مؤسس منظمة الدومينكان فقد بدأ في ممارسة نشاطه بادئ ذي بدء مع الألبجنسيس الذين اعتبرت الكنيسة الكاثوليكية حركتهم التي قامت في جنوب فرنسا حركة هرطقية إلى حد أن البابا أنوسنت الثالث وجه إليهم سنة 1208 حملة صليبية كبيرة على غرار الحملات الصليبية التي كانت توجه ضد المسلمين فحاربتهم بعنف وقسوة حتى تمكنت من القضاء على حركتهم في سنة 1216م فاتجه دومينيك بعد ذلك إلى العمل على تنصير غير المسيحيين واقتدى به أتباعه في ذلك من بعده[1].

ولذلك كان رهبان هاتين المنظمتين البعثات التي أرسلت إلى التتار وترددوا على بلاد المسلمين والملاحظ على جهود هؤلاء الرهبان، أنها كانت توجه إما على شكل سفارات كما كان الأمر مع خانات التتار، وإما أن تسير في ركاب القوى العسكرية المسيحية كما حدث بالنسبة لفرانسيس الأسوزي

مع السلطان الكامل وبالنسبة لإفريقية في هذه الحملة والتي أصبحت نموذجا احتذي في الدنيا الجديدة في عصر الاكتشافات الجغرافية ثم في عصر الاستعمار الأوروبي الحديث فيما بعد[2].

وإذا كان نشاط هؤلاء الرهبان المنصرين في الدولة الحفصية لم يكن بالشيء الجديد وإنما كانوا يمارسون هذا النشاط بالفعل منذ وقت سابق على قيام الحملة، فإن الجديد فيه هو إعطاء هؤلاء الحرية الكاملة للممارسة هذا النشاط وإضفاء الشرعية عليه يجعله شرطا في

2-حسين ممدوح: المرجع السابق، ص 351.

1- سعيد محمود عمران: **تاريخ الحروب الصليبية**، المرجع السابق، ص 349.

معاهدة هامة حددت مصير حملة صليبية كبيرة، وفرضه على المستنصر بعد أن كان ذلك النشاط السابق يمارس اعتماداً على تسامحه فقط[1].

وعلى ذلك فقد أفلح رهبان هاتين المنظمتين بموجب هذا الشرط الذي لم يوضع في المعاهدة إلا لإرضائهم نظراً لأنهم كانوا يتبوؤون مراكز حساسة لدى زعماء الحملة ومكافأة لهم على جهودهم في الإعداد لها، أفلحوا في جعل إفريقية ميدانا لنشاطهم العلني والحر من كل قيد وتأكيداً على منزلة هؤلاء وتوافق جهودهم مع أهداف الحركة الصليبية في إفريقية كانوا شهوداً على المعاهدة.

وابتداء من ذلك الوقت أصبحوا يذكرون كطرف شاهد مفاوض في كافة الاتفاقيات التي عقدت بين الدولة الحفصية والدولة المسيحية، ثم تعرض النص بعد ذلك لنقطة أخرى هي تحديد هوية هؤلاء فنص على أن يكونوا سكانا في إفريقية وليس من ساكني إفريقية، والفرق بين المعنيين واضح، ذلك أن كلمة (سكانا) تعني اعتبار ما سيكون وليس ما هو كائن بالفعل[2].

أي أن يكون هؤلاء سكان إفريقية وليس المقصود بهم أولئك الذين كانوا يقيمون في تلك البلاد فعلا وبعبارة أخرى أن المعاهدة شرطت على المستنصر أن يسمح لهؤلاء الرهبان والقساوسة الذين لم تحدد عددهم والذين سيفدون إليها من الخارج إما بانتداب أنفسهم أو ينتدبهم سواهم بالإقامة في إفريقية ويصبحوا من سكانها وذلك لممارسة نشاطهم التنصيري بين مسلميها دون أن يكون للمستنصر الحق في الاعتراض لا على عدد هؤلاء الوافدين الجدد أو على نشاطهم أو حتى على أسلوبهم في العمل فيما إذا تسبب في إيذاء شعور المسلمين، وبذلك فتحت المعاهدة أبواب إفريقية على مصراعيها لهذا الجيش من الرهبان المنصرين[3].

2- محمد المطوي العروسي: **الحروب الصليبية في المشرق والمغرب**، المرجع السابق، ص188.

2- حسين ممدوح: المرجع السابق، ص 352.

1- سعيد عبد الفتاح عاشور: **الحركة الصليبية**، المرجع السابق، ص190.

ولم تكتف المعاهدة بذلك بل ألزمت المستنصر أن يعطيهم موضعاً يؤسسون فيه ديراً لهم، حيث أن رهبان ذلك العصر، خرجوا عن مبادئ الرهبنة المألوفة إلى ميدان التنصير لأدركنا أن الغرض الأساسي من إنشاء ذلك الدير كان هو جعله مركزاً لنشاطات التنصير وهذا الدير غير الكنائس، لأن الكنائس نصت عليها الحملة التالية (وبيوت الصلاة)، أي أن يمنحهم المستنصر مواضع لإنشاء الكنائس فيها.

وإذا كان هذا النص لم يحدد عدد هذه الكنائس أو يبين أماكن إقامتها بوضوح مما جعل الغموض يكتنف هذا الأمر، ويمضي النص فيصف طبيعة عمل الرهبان والقساوسة فيمنحهم حق الوعظ والصلاة جهراً، وما دام التمييز بين هاتين الفئتين، فمن الطبيعي أن يتم التمييز أيضا بين الوعظ والصلاة

والمقصود بالوعظ في هذا النص هو الدعوة إلى النصرانية، ولو كان الأمر على خلاف ذلك لشملتها كلمة الصلاة، ولو كانت الصلاة وحدها هي المقصودة لم يكن هناك ثمة داع لذكرها أصلا في المعاهدة لأن الحرية الدينية نظراً للتسامح الذي اتصف به الحفصيون كانت مكفولة للنصارى[1].

وكان النصارى في تلك الدولة سواء أكانوا بقايا نصارى إفريقية الذين ظلوا على دينهم منذ الفتح أو الجاليات الأوروبية فيها من تجار وجند في جيش السلطان وسواهم كانوا يقومون بأداء شعائرهم الدينية بحرية تامة[2].

فالتركيز في النص على الوعظ وليس على الصلاة وما جاءت كلمة الصلاة إلى مكملة للوعظ وليست مرادفة له وعلى ذلك فقط شرطت المعاهدة على المستنصر السماح للمنصرين بالدعوة إلى النصرانية بين المسلمين.

1- حسين ممدوح: المرجع السابق، ص 353.

1-محمد المطوي العروسي: **السلطنة الحفصية**، المرجع السابق،ص226.

و قرنت ذلك بشرط العلنية، أي أن يمارس هؤلاء دعوتهم بحرية وعلانية ويتبع ذلك مباشرة جملة ثانية شاملة المعنى أعطتهم الحق في فعل كل ما يرونه لازماً لمهمتهم في إفريقية.

وأباحت لهم ربما ما لم يكن مباحا من قبل مما يلزم شعائرهم كضرب الناقوس علناً أو الاحتفالات العلنية بالمناسبات الدينية كأعياد الميلاد والتعميد وعيد القيامة وأعياد الرسل والقديسين وسواها والتي من الممكن أنها لم تكن تقام بحرية تامة لما يصاحبها في العادة من أعمال ينكرها المسلمون نظرا لما تسببه من إيذاء لمشاعرهم كشرب الخمر وما إلى ذلك فهذا الشرط قد فتح أبواب إفريقية لحركة التنصير بالدعوة السلمية العلنية وبحرية تامة دون أن يكون هناك مجال لأي اعتراض لا من المستنصر ولا من شعبه[1].

2- محمد المطوي العروسي: **الحروب الصليبية في المشرق والمغرب**، المرجع السابق، ص190.

كانت الدولة الحفصية هي المسيطرة على إفريقية قبل الهجوم الصليبي عليها وهي خليفة الدول الموحدية، والتي كانت لها علاقات تجارية مع الجمهوريات الإيطالية.

ومما يعرف أن أوضاع الفرنجة قبل غزوهم لإفريقية والذي يعود أصولهم إلى أسرة ال كابيه التي سيطرت على فرنسا بعد سقوط البيت الكرو لنجي، حيث شن لويس حملته على مصر التي باءت بالفشل ثم عاود الكرى وكانت وجهتها هذه المرة تونس، ومما شجعه ظروف فرنسا التي كانت تسمح له بالإعداد لهذه حملة الصليبية.

نزل لويس التاسع بمدينة تونس بقواته وتشابكت هذه القوات في العديد من المرات مع المسلمين، و استلاء الصليبين على الحصن الموجود في قرطاجة المقابلة لتونس وتحصنوا به، فكانت مواجهة المستنصر لهم بعدما ايقن أن الحل السلمي لا يجدي نفعا فحث اهل إفريقية على الجهاد.

وقد كان من اسباب فشل الحملة الوباء الذي تفشى بين الصليبين، وادى إلى وفاة الملك لويس.

من نتائج هذه الحملة الصليبية:

– لم يكن هدفها المشرق لوحده ولا بيت المقدس كما يزعمون وإنما هدفها استئصال الإسلام من كل العالم الإسلامي وإبادة المسلمين.

– عاثوا فسادا وسفكوا الدماء واغتصبوا النساء في حملتهم على مصر وتونس خاصة في حصن مدينة قرطاجة بعدما أحرقوهم احياء بأمر من لويس التاسع الذي عرف بتدينه وورعه وتقاه في اوساط المسيحين.

–وقد كان من بين اهدافها نشر المسيحية وتنصير المسلمين.

– نهب خيراتهم وقد تحققت بعضها في نصوص المعاهدة بفرض غرامات مالية يدفعها المستنصر الحفصي للصليبين وحمل الرعايا دفع تلك الغرامة.

– فقد قرطاجة معالمها.

– عدم وقف المستنصر موقف الحزم باجتناب تلك الكارثة وصدهم عن دخول قرطاجة.

– اعطاء الحرية للأساقفة والباباوات لممارسة شعائرهم الدينية والتي استغلوها في تنصير سكان إفريقية.

الملحق رقم 01: خريطة الحملة الصليبية السابعة على مصر.

سامي بن عبد الله بن أحمد المغلوث: أطلس الحملات الصليبية على المشرق الإسلامي في العصور الوسطى، ط1، الرياض، 2009، ص 170.

الملحق رقم 02:خريطة الحملة الصليبية على تونس.

سامي بن عبد الله بن احمد المغلوث: المرجع السابق، ص 189.

الملحق 03: وثيقة معاهدة الصلح بين المستنصر والصليبيين.

بسم الله الرحمن الرحيم

صلى الله على سيدنا محمد النبي وآله وصحبه وسلم تسليماً.

هذا ما اتفقوا عليه وعقدوه على يد الشيخ الأجل الأكرم أبو زيان محمد بن عبد القوي : الملك الأجل المعظم المختار فليب بنعمة الله تعالى ملك افرنسة ابن الملك الأجل الأقدس لويس، والملك الأجل المعظم جارل بنعمة الله تعالى ملك صقلية، والملك الأجل المعظم تيبلط ملك نفاره، أمدهم الله تعالى لتوفيقه، والخليفة الإمام المؤيد المنصور أمير المؤمنين أبو عبد الله محمد بن الأمراء الراشدين أيدهم الله بنصره وأمدهم بمعونته ورضي عنهم وأبقى للمسلمين بركتهم، على شروط يأتي ذكرها وهي : أن يكون جميع من يتردد من المسلمين الذين من بلاد أمير المؤمنين ومما هو تحت طاعته ومما ينضاف إلى طاعته إلى بلد من بلاد الملوك المذكورين والأقماط والزعماء، أو إلى جزيرة من الجزاير المعروفة بهم، أو ما هو تحت طاعتهم أو ما ينضاف إلى طاعتهم، في أمان الله تعالى لا يعترض أحد منهم في نفس ولا مال كثير أو قليل وأن يكفوا عادية كل من يخرج من بلادهم ومما هو تحت طاعتهم، وما ينضاف إلى طاعتهم من مسطحات وقطع وشياطي وغيرها من ساير الأجفان كبيرها أو صغيرها، لضرر أو تعد على شيء من بلاد أمير المؤمنين ومما ينضاف إلى طاعته وما بينهما من جميع البلاد والجزاير والسواحل والمراسي، أو على أحد من ساكنيها، فمتى أصيب أحد من المسلمين المذكورين في نفس أو مال قليل أو كثير فعليهم جبر ذلك على المسلمين ورده، سوا كان المسلمون واردين على البلاد المذكورة أو صادرين عنها، وعلى أنهم لا يمدون أحداً يريد ضرر بلد من بلاد أمير المؤمنين ولا ما ينضاف إليها ولا أحد من أهلها، وعلى أنه متى انكسر لأحد من المسلمين المذكورين جفن، أو جفن للنصارى وفيه أحد من المسلمين المذكورين في مرسى من مراسي بلادهم وفيما يكون تحت طاعتهم، فعلى كل واحد منهم حفظ ما يصل من ذلك إلى بر طاعتهم من المسلمين أو من أموالهم ورد جميع ذلك إلى المسلمين، وعلى أن يكون جميع من يحل من مراكب المسلمين والنصارى من غير البلاد المذكورة ومما ينضاف إلى طاعة المسلمين في مرسى من مراسي أمير المؤمنين في أمن مثل أمن أهل البلاد المذكورة ما داموا في المرسى المذكور أو مقلعين واردين أو

حسين ممدوحّ: المرجع السابق، ص 710.

الملحق رقم 04: وثيقة المعاهدة الصلح بين المستنصر والصليبيين..

قسطنطينية والكمت الأجل ألفوس كمت طلوزة، والكمت الأجل كي كمت دافلندر، والكمت الأجل هري كمت لوسنبرك، وجميع من حضر من الأقماط والزعما والفرسان داخلون في ذلك كله ولازم لهم ذلك. شهد على جميع من ذكر في الأعلا المشهودين بما فيه بعد تقريرهم عليهم وفهمهم جميع ما نسب إلى كل واحد منهم بمحضر الجميع. وليعطي أمير المؤمنين على المال المتبقي ضماناً من تجار النصارى للملوك المذكورين وإن كل من يكون عدواً للملوك والأقماط المذكورين يصرف ويخرج من بلاد أمير المؤمنين ولا يعاد يقبل. وشهد أيضاً من حضر من القسوس والرهبان والأساقفة بجميع ذلك. وأمير المؤمنين أيده الله تعالى، وولده المبارك الأسعد، والشيخ الأجل أبو زيان بن عبد القوي، وعدوا على دينهم وأمانتهم لتمام ذلك، بتاريخ الخامس لربيع آخر عام تسعة وستين وستمائة. ويضاف إلى هذا العقد أن يودى إلى الملك الأجل جارل بنعمة الله ملك صقلية عن الخمسة أعوام الماضية المتصل آخرها بهذا التاريخ ما كان يودى للانبرور سوا، ويودى للملك الأجل المذكور من اليوم رجاء في كل عام ما كان يودى للانبرور مثنياً.

والحمد لله تعالى، شهد بانعقاد الصلح وصحته وثبوته عبد الحميد بن أبي البركات بن عمران بن أبي الدنيا الصدفي، وعلي التميمي بن إبراهيم بن عمر، وأبو القسم بن أبي بكر التجيبي.

حسين ممدوح: المرجع السابق، ص 711.

أولا : المصادر

القرآن الكريم: رواية حفص.

2- (ابن خلدون) عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الخضرمي: **ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر** ،ج6 ، دار الفكر، لبنان، سنة2001.

3- (الدباغ) أبي زيد عبد الرحمن بن محمد الأنصاري الأسيدي: **معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان**، ج3، تحقيق محمد الأحمدي أبو النور، ومحمد ماضور، مكتبة الخانجي، القاهرة، المكتبة العتيقة، تونس، بدون تاريخ.

4- (الدواداري) أبو بكر بن عبد الله بن أيبك: **كنز الدرر وجامع الغرر**، ج8، (الدرة الزكية في الدولة التركية) ، تحقيق أولرخ هارمان، القاهرة، سنة 1971.

5- (ابن أبي دينار) أبو عبد الله محمد بن أبي القاسم الرعيني القيرواني: **المؤنس في أخبار إفريقيا وتونس**، تحقيق وتعليق محمد شمام، المكتبة العتيقة، تونس، ط3، سنة 1387هـ.

6- (ابن أبي زرع)، أبو الحسن علي بن عبد الله الفاسي :

....**الأنس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس**، دار المنصورة للطباعة والوراقة، الرباط، سنة 1972.

....**الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية**، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، سنة 1972.

7- (السراج) محمد بن محمد الأندلسي الوزير: **الحل السندسية في الأخبار التونسية**، تحقيق وتقديم محمد الحبيب الهيلة، الدار التونسية للنشر، تونس، سنة 1970.

8- (ابن الشماع) أبو العباس أحمد: **الأدلة البينية النورانية في مفاخر الدولة الحفصية**، تحقيق عثمان الكعاك، تونس، سنة 1904.

9- (ابن أبي الضياف) أبو العباس أحمد بن الحاج بالضياف بن عمر بن أحمد بن نصر: **إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان**، ج1، الدار التونسية للنشر، ط2، سنة 1976.

10- (ابن فرحون) القاضي برهان الدين إبراهيم بن علي بن محمد: **الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب**، تحقيق وتعليق محمد الأحمدي أبو النور، دار التراث، القاهرة، سنة 1974.

11- (ابن القنفد) أبو العباس أحمد بن حسين بن علي بن الخطيب بن القنفد القسنطيني: **الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية** ، تقديم وتحقيق محمد الشاذلي النيفر، عبد المجيد التركي ،ب ط، الدار التونسية، سنة 1968.

12- مجهول مؤرخ مراكشي عاش في القرن السادس الهجري: **كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار**، تحقيق سعد زغلول عبد الحميد، جامعة الإسكندرية، كلية الأدب، الإسكندرية، سنة 1958.

13-(المسعودي) محمد الباجي: **الخلاصة النقية في أمراء إفريقية**، تونس، سنة 1283هـ.

14- (المقريزي) تقي الدين أبو العباس علي بن أحمد: **السلوك لمعرفة دول الملوك**، ج1، تحقيق محمد مصطفى زيادة، القاهرة، سنة 1934-1942.

15- محي الدين بن عبد الظاهر: **الروض الزهر في سيرة الملك الظاهر**، تحقيق ونشر عبد العزيز الخويطر، ط1، 1976.

ثانيا: المراجع

16- ممدوح حسين: **الحروب الصليبية في شمال إفريقية وأثرها الحضاري**، ط1، 1998.

17- مؤنس حسين، أطلس تاريخ الإسلام، ط1، القاهرة،1987.

18- سعيد عبد الفتاح عاشور، **الحركة الصليبية**، صفحة مشرقة في تاريخ الجهاد العربي في العصور الوسطى، ج2، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط2، سنة 1971.

19- العروسي المطوي محمد:

....الحروب الصليبية في المشرق والمغرب، دار العرب الإسلامي، 1982.

....السلطنة الحفصية، دار العرب الإسلامي، لبنان، 1986.

20- الشاعر محمد فتحي: **أوروبا في العصور الوسطى، مكتبة الأنجلو المصرية**، بدون تاريخ.

21- المغلوث سامي بن عبد الله بن أحمد: **أطلس الحملات الصليبية على المشرق الإسلامي** في العصور الوسطى، ط1، الرياض، 2009.

22- عمران محمود سعيد:

....**تاريخ الحروب الصليبية**، دار المعرفة الجامعية، 2000.

....معالم تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، بدون تاريخ.

23- وهبه مصطفى: **موجز تاريخ الحروب الصليبية**، مكتبة الإيمان المصرية أمام جامعة الأزهر، ط1، 1997.

24-العريني السيد الباز: **المغول**، دار النهضة العربية،دط،1986.

25-فرح نعيم: **تاريخ أوربا السياسي في العصور الوسطى**، دط، دمشق،1995.

صالح أشرف: الحقبة الهوهنشتاوفنية في الإمبراطورية الرومانية المقدسة.

26-ملطي يعقوب: **قاموس اباء الكنيسة وقدسيها مع بعض شخصيات كنيسية**،1998.

27–بيشوب موريس: **تاريخ أوربا في العصور الوسطى**، ترجمة علي السيد على،ط1، المجلس الاعلى للثقافة،القاهرة،2005.

ثالثا: الرسائل الجامعية:

28– الكردي نيفين ظافر حسيب: **الأوضاع الدينية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية من ق9حتى ق11**،قسم التاريخ والأثار بكلية الآداب في الجامعة الإسلامية فلسطين،2011.

كلمة شكر	/
إهداء	/
قائمة المختصرات	/
مقدمة	أ- د
الفصل التمهيدي: أوضاع تونس والفرنجة قبل الحملة	
المبحث الأول: أوضاع تونس قبل الهجوم الصليبي.	06
1-الدولة الحفصية.	06
المبحث الثاني: أوضاع الفرنجة قبل الحملة على تونس.	08
1-الفرنجة.	08
2-لويس التاسع.	09
3-فشل الحملة الصليبية على مصر وتراجع الفرنجة.	10
الفصل الأول: الهجوم الصليبي على تونس	
المبحث الأول: دعوة لويس التاسع إلى حملة صليبية جديدة.	14
المبحث الثاني: رحيل لويس التاسع من باريس اجتماع كالياري.	19
المبحث الثالث: مواجهة المستنصر الحفصي للحملة الصليبية.	28
المبحث الرابع: المقاومة الإسلامية.	31
الفصل الثاني: فشل الحملة ونتائجها	
المبحث الأول: أسباب فشل الحملة.	36
المبحث الثاني: المفاوضات.	39
1-الوفد الإسلامي في المفاوضات.	42
المبحث الثالث: معاهدة الصلح.	43
1-إتفاقية الصلح.	43
2-إنسحاب الصليبين.	40 45
3-أسس الصلح.	47
أ-الاقتصادية.	47

ب–السياسية.	53
ج–الدينية	58
خاتمة	64
الملاحق	66
قائمة المصادر والمراجع	70
فهرس المحتويات	75